# عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها

## أيامها.. وسيرتها الكاملة في صفحات


بقلم

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي



يُطلب من:

مكتبة الفارابي



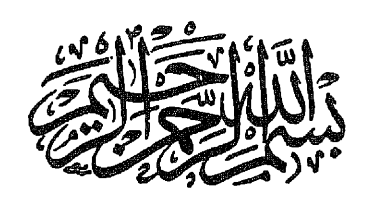

## أيامها.. وسيرتها الكاملة في صفحات

بقلم

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

يُطلب من:

مكتبة الفارابي






١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

يُطْلَبُ مِنْ :




دمشق - شارع الجامعة - جانب مشافي كلية الطب
☎ ٢٢٦٧٨٦ - ✉ ٢٣٨٢

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الحمد للَّه ولّي كلّ نعمة، وأفضل الصَّلاة وأتمّ التّسليم على سيّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فإنّي أظنّ أنّ في النّاس الّذين يتتبّعون كتاباتي، من يقول في نفسه أو بلسانه : ألم تكن تستأهل عائشة أمّ المؤمنين، في مجال الحديث عنها، أكثر من هذه الصَّفحات ؟!.. وربّما كان من العوامل الدّافعة إلى هذا السّؤال، أنّ كتاباً بهذا الحجم، يبدو غريباً بين كتبي الأخرى، إن استثنينا سلسلة (( أبحاث في القمّة )) التي تتألّف من عشر كتيّبات صغيرة. ولا أكتم القارئ، أنّني أوّل من خطر في باله هذا السّؤال، فقد طرحته على نفسي قبل أن يطرحه علّي أحد. وجوابي هو: أنّ كتابات وكتباً كثيرة مسهبة وموجزة ظهرت عن السيِّدة عائشة رضي الله عنها، لاسيما في هذا العصر، عُني بعض منها بالجانب السِّياسي والآخر بالجانب الفقهي والعلمي، واهتمّ بعضها بإبراز القيمة البلاغيّة والأدبيّة في حياتها، واتّجه بعضها إلى الدّائرة الشموليّة التي تبرز سيرتها في كلٍّ متكاملٍ، بالأسلوب الأدبيّ آناً والطّريقة التّحليليّة آناً آخر..

غير أنّ ثمة أحداثاً تتعلّق بحياتها، ومواقف تتعلّق بسلوكها واجتهاداتها، أضفَت على سيرتها أهميّة اخترقت أشكال ورسوم السِّيرة التقليديّة المتكرّرة في حياة الآخرين، أي التي تشكل جامعاً مشتركاً بين الناس جميعاً.

هذه الأحداث والمواقف، لم يمرّ بها ذوو الاتّجاهات المذهبيّة والفكريّة المتنوّعة مسرعين غير عابئين. بل وقفوا عندها، ولم يتجاوزوها حتّى لوّنها كلّ منهم بلون الغرض الذي يبتغيه، والفكرة التي ينادي بها.

وتنظر إلى الكتابات المسهبة الكثيرة والمتنوعة، التي ظهرت عن السيِّدة رضي اللّه عنها، والتي أشرنا إلى طرائقها وأساليبها المتنوّعة، وإذا بهذه الأحداث والمواقف المتميّزة في حياتها، مغمورة، بل أكاد أقول: ضائعة، في خضمّ أخبارها وأعمالها وأنشطتها التي تُعرض بإسهاب، وأحياناً بتمطيط وتكرار .... فلا يكاد القارئ يقف من ذلك الخضمِّ على شيء من معالم تلك الأحداث والمواقف المتميّزة في حياتها، فضلاً عن أن يتاح له دراستها، وتصوّرها كما هي وبواقعها الحقيقي، صافية عن شوائب الألوان الدّخيلة وكدوراتها.

فعملي في هذا الكتاب، وإن كان في مظهره، سرداً تاريخياً لحياة أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، إلاّ أنّه في

مضمونــه لا يكاد يزيد على أن يكون تركيزاً على هذه الأحداث والمواقف المتميّزة، في حياة هذه السيّدة رضي الله عنهـا. غير أنّـي فضّلت أن يــأتي هـذا التّركيــز عنــد مناسباتــه ضمـن النّسيج العام لمجموع سيرة حياتها من ولادتها إلى الوفاة.

ومن ثم فقد أوجـزت الحديـث عـن سـيرة عائشـة رضـي الله عنها، من حيث الهيكل العــام لحياتهـا، ووقـائع أحداثهـا العاديـة. ولكنّي توسّـعت قـدر اللّزوم في بيـان تلـك المواقـف والأحـداث الخاصّة في سيرتها.

فالكتاب في الحقيقة موجز جدّاً مــن حيـث هـو سـيرة عامّـة، ومفصّل، بل موسَّع، من حيث هو تركيز علـى شـؤون ومواقـف هامّة من حياة عائشة رضي الله عنها.

وأهمّ هذه المواقف والأحداث التي وقفت عندها، ما قد تــدلّ عليه العناوين التّالية:

١- زواج رسول الله ﷺ من عائشة، وما استشكله بعض الكاتبين من صغر سنّها آنذاك.

٢- حبّ رسول الله لها خاصّة، وحبّه للنّساء عامّة، كما قـد ورد ذلك في حديثه ﷺ عن نفسه.

٣- حديـث الإفـك، ومــا كــان بـين يديـه، والذّيـول الــتي جاءت على أعقابه.

٤- يوم الجمل، والبحث عن صانعيه والمختبئين فيه.

٥- البحث عن عنصر المعارضة في شخص عائشة، وأين وكيف يمكن اكتشافه.

وإذا كانت مهمّة كثير من الّذين كتبوا عن هذه الأحداث والمواقف، التي تدلّ عليها هذه العناوين، أن يلوّنها كلّ منهم بلون الغرض الّذي يسعى إليه أو الفكرة التي يروّج لها - فمعاذ اللّه أن يكون عملي مساهمة معهم في التّلوين !!...

إنّ مهمّتي هي أن أبرز هذه المواقف والأحداث كما هي، عارية عن أيّ كسوة تخدم اتّجاهاً أو تروّج لمذهب أو تقرّب السَّبيل إلى غرض... إنّ غرضي الأوحد أن نصغي إلى ما تنطق به هذه المواقف والأحداث معرِّفة بذاتها، بدلاً من أن نصغي إلى ما تُسْتَنْطَقُ به، تعريفاً أو ترويجاً لذاتّيات المذاهب والأغراض التي تعوزها الأبواق المروّجة، والبراهين المؤيّدة.

وهذا يقتضي أن نتجرّد، قبل كلّ شيء، عن قيود الأسبقيّات، وعن تقديس الذّرائع... ونحمد الله أن جعل لنا من إسلامنا خير ضياء على هذا السبّيل، وأفضل عون للتحرّر من هذه القيود. اللهمَّ ثبّتنا على هديك، وألزمنا شرعة قولك: ﴿ولا تقْفُ ماليسَ لكَ بهِ علمٌ إنَّ السَّمعَ والبَصَرَ والفُؤاد، كُلُّ أولئِكَ كانَ عنهُ مَسْؤولاً﴾.

# مُقدّمـــة:

إنّ دراسة حياة أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ليست من نوع الدّراسات التّاريخيّة التّقليديّة، ولا الأعمال الدينيّة المحضة. بل هي، في الحقيقة، استطلاع لواقع اجتماعي متراكب معقّد، يتجلّى في حياة شخص واحد هي حياة هذه السيّدة: عائشة رضي الله عنها، فهي تجلو الواقع الاجتماعي في صدر الإسلام، متمثّلاً في الدّين وأثره في تطوير ذلك المجتمع، بل في إبداعه من جديد، ومتمثّلاً في التّركيب الاجتماعي الذي آل إليه حال العرب في الجزيرة العربيّة بعد بعثة سيّدنا محمّد رسول الله ﷺ ومتمثّلاً في الوضع الاجتماعي الجديد الّذي آلت إليه المرأة في ظلّ الإسلام، ومتمثّلاً في الفعاليّات السّياسيّة التي تفجّرت في حياة العرب آنذاك وموقع المرأة المسلمة منها، ومتمثّلاً في التفاعل المتبادل والسّاري بين العوامل الدّينيّة: (( الإسلاميّة )) والأنشطة السّياسيّة التي كانت لا تتحرّك إلاّ خدمة للرّؤية الإسلاميّة ورعاية لمبادئ الدّين وأحكامه.

فدراسة حياة السيّدة عائشة، ماهي إلاّ استطلاع لواقع تجمّعت فيه هذه الجوانب كلها.

ولا ريب أنّ دراسة وافية تنهض بهذه المسؤوليّة وتحقّق هذا

الغرض، لا يتّسع لها بحث كهذا، بل لا يمكن أن تعطي ثمارها وتحقّق نتائجها، إلاّ من خلال مجلّد قد أشبعت فيه هذه الاستطلاعات أو الدّراسات المتنوّعة كلّها.

ولكن، كما أنّ للدّراسات المستوعبة المفصلة التي تبرز في موسوعات أو مجلّدات، وظائفها وفوائدها؛ فإنّ للملخّصات السّليمة، أيضاً وظائفها وفوائدها المختلفة. وقد أوضحنا طرفاً من هذه الوظائف في خطبة الكتاب.

ولعلّ في هذا الإيجاز الّذي نحن مقبلون عليه، ما يحقّق فائدته المرجوّة وهدفه المطلوب. ولعلّه لا يكون إيجازاً مُخلاًّ، بل وافياً بالغَرض الذي التزمنا به.

* * *

# وِلادَتُها، وَنَسَبُها، وَصِباهَا

ولدت السيِّدة عائشة قبل هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة - على الأرجح - بسبع سنوات. فقد صحّ عنها أنّها قالت: تزوّجني رسول الله ﷺ - أي عقد علّي - لستّ سنين، وبنى بي وأنا بنت تسع سنين. والحديث متّفق عليه من رواية الشّيخين. فإذا علمنا أنّه ﷺ بنى - أي دخل - بها في شهر شوّال بعد غزوة بدر في السّنة الثّانية من الهجرة، تبيّن لنا أنّها ولدت قبل الهجرة بسبع سنوات.

فعائشة إذن ممّن ولد في مهد الإِسلام، وفتح عينيه على ضِيائه. وأمّا نسبها : فأبوها هو الصدّيق الأكبر لرسول الله، أبو بكر، واسمه عبد الله بن أبي قحافة واسم أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن مرة... ويلتقي نسبه مع نسب رسول الله هنا، كما ترى. وكان اسم أبيها في الجاهليّة عبد الكعبة، فسمّاه رسول الله بعد أن أسلم عبد الله، كما نصّ على ذلك في سير أعلام النُبلاء.

والصّحيح أنّه لقّب بالصِّدّيق منذ الجاهليّة، ثم ترسّخ هذا اللّقب له في الإِسلام، عندما أخبره المشركون عن النّبأ العجيب

الذي أنبأ به رسولُ الله النّاسَ، وهو الإِسراء والعروج به إلى المسجد الأقصى والسّماوات العلى، فقال لهم: لئن قال ذلك فقد صدق.

وأما أمّها، فهي أمّ رومان، وقد اشتهرت بكنيتها هذه أكثر من أن تعرف باسمها، والرّاجح أنّ اسمها زينب، وقيل: دعد بنت عامر. ونسبها يرتفع إلى كنانة. وهي من السّابقات إلى الإِسلام، تقول عائشة رضي الله عنها: «لم أعقل أبوي إلاّ وهما يدينان بالإِسلام» والصّحيح أنّ أمّ رومان هذه عاشت حتّى توفّيت في خلافة عثمان، وليس كما قال بعضهم أنّها توفّيت في سنة ستّ من الهجرة (انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ٣٣٧/٧).

ولعائشة أخٌ شقيق اسمه عبد الرّحمن. ولها إخوة وأخوات من أمّهات أخريات: عبد الله وأسماء. ومحمَّد وأمّ كلثوم.

عاشت السيِّدة عائشة، كما حدّثت عن نفسها، طفولةً مرحةً، وكانت تأخذ حظّها في اللّعب والحركة مع أترابها... ولم تزل تتمتّع بقدر وافر من مرحها ولعبها إلى أن أصبحت عروساً وبنى بها رسول الله ﷺ . فقد قالت عن نفسها - فيما رواه البخاري ومسلم - «أتتني أمّ رومان وأنا على أرجوحة، ومعي صواحبي، فصرخت بي فأتيتها، وما أدري ما

تريد بي، فأخذت بيدي فأوقفتني على الباب، فقلت: هه.. هه..
حتّى ذهب نَفَسي (تصف اضطرابها من وقع المفاجأة)
فأدخلتني بيتاً، فإذا نسوة من الأنصار، فقلن: على الخير
والبركة على خير طائر )).

# الخِطْبَةُ وَالزَّوَاجُ مِن رَسُولِ اللَّه

بدأت أولى مراحل خطبة رسول الله ﷺ لعائشة، بوحي أُوحِيَ به إليه فقد روى كلّ من البخاري ومسلم في صحيحه عن عائشة أنّها قالت: قال رسول الله ﷺ: أُرِيتُكِ في المنام ثلاث ليال، جاءني بك الملَك في سَرَقَةٍ من حرير، فيقول: هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك فإذا أنت هي، فأقول: إن يك هذا من عند الله يُمْضِهِ(١).

ويبدو أنّ هذه الرّؤيا كانت في عهد خديجة. ثم إنّ خولة بنت حكيم جاءت إلىرسول اللهﷺ بعد وفاة خديجة، فقالت له: يارسول الله، ألا تتزوّج؟ قال: ومن ؟ قالت إن شئت بكراً، وإن شئت ثيّباً. قال: مَن البكر ومَن الثّيب؟ قالت: أما البكر فعائشة ابنة أحبّ خلق الله إليك، وأمّا الثّيب فسودة بنت زمعة، وقد آمنت بك واتّبعَتك. قال: فاذهبي فاذكريهما علّي. فجاءت فدخلت بيت أبي بكر، فوجدت أم رومان، فقالت: ماأدخل الله عليكم من الخير والبركة !!... قالت: وماذاك؟ قالت:أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة. قالت: وددت أن تنتظري

---

(١) - أخرجه البخاري في كتاب التعبير، ومسلم في فضائل الصّحابة. ومعنى سرقة القطعة من الحرير الفاخر.

أبا بكر. فجاء أبو بكر، فذكرت له الأمر، فقال: وهل تصلح له وهي بنت أخيه؟ فرجعت خولة فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ. قال لها: قولي له أنت أخي في الإسلام، وابنتك تحلّ لي. فجاء. فأنكحه إيّاها وهي بنت ست وقيل سبع سنين[1].

بقي النّكاح في حدود الخطبة أو العقد، فلم يتزوّجها رسول الله ولم يبن بها حتى هاجر إلى المدينة، ودخلت هجرته إليها في عامها الثاني.

أما سودة فتزوجها رسول الله ﷺ في رمضان في العام العاشر من البعثة أي قبل زواجه من عائشة بثلاث سنوات تقريباً.

ولـمّا هاجر النبيّ ﷺ وكان بصحبته أبو بكر، تخلفت السيّدة عائشة مع من تخلّف من آل النبيّ وآل أبي بكر. ولم يتح لهم اللّحاق به ﷺ إلاّ فيما بعد، وتحمّلت أسرة أبي بكر، وفي مقدّمتها عائشة، بعضَ الصّعُوبات والأخطار في طريق الوصول إلى المدينة.

ولـمّا استقر بهم المقام في المدينة، أصابهم من وبائها؛ وكانت المدينة التي تسمى يثرب آنذاك، معروفة بسوء مناخها، فمرض أكثرهم، بمن فيهم أبو بكر، وعائشة وآخرون. فكان

---

[1] الإصابة في تمييز الصّحابة لابن حجر: ٤/٣٤٩ ومسند الإمام أحمد ٦/٢١٠.

النبيّ ﷺ إذا رآهم دعا الله قائلاً:

(( اللهمَّ حبّب إلينا المدينة كحبّنا مكّة أو أشدّ، وصحّحها، وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حمّاها فاجعلها بالجحفة ))[1].

ولقد استجاب الله دعاء رسوله، فطاب مناخ المدينة من بعد، حتّى أصبحت أطيب بلاد الله، وطهّرها من الوباء الّذي كان فيها.

وشفيت عائشة بعد أن مرضت مدة شهر كامل، هزل خلال ذلك جسدها وتساقط الكثير من شعرها، وعاودتها العافية والصحّة من بعد.

وتزوّجها رسول الله ﷺ في السّنة الثّانية من الهجرة بعد غزوة بدر، في أصحّ ما ذهب إليه الرّواة، في شهر شوّال. وكانت تقول: (( تزوّجني رسول الله ﷺ -أي عقد عليّ- في شوّال، بنى بي في شوّال، فأيّ نساء رسول الله كانت أحظى عنده منّي ))[2].

وكان صداقها منه ﷺ خمسمائة درهم. كما ذكر ذلك مسلم في صحيحه[3]. وقد وصفت فراش رسول الله ﷺ في الغرفة

---

[1] - متّفق عليه، من حديث عائشة.

[2] -رواه مسلم في كتاب النّكاح.

[3] - مسلم في كتاب النّكاح، باب الصّداق.

التي زفت إليه فيها، فقالت: (( إنّما كان فراش رسول الله الّذي ينام عليه أدماً (أي جلداً) حشوه ليف ))[1]. وقد روى البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليّ امرأة من الأنصار، فرأت فراش رسول الله، قطيفة مَثْنِيَّةً، فبعثت إلي بفراش حشوه الصّوف، فدخل عليَّ رسول الله فقال: ما هذا ياعائشة؟ قلت: يارسول الله، فلانة الأنصاريّة دخلت فرأت فراشك فذهبت فبعثت إليّ بهذا. فقال: ردّيه ياعائشة، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذّهب والفضّة[2].

* * *

## وجوابٌ عن لغوٍ قيل في حقّ هذا الزّواج:

لغا بعض النّاس، في هذا العصر، حول زواج رسول الله من عائشة. فاستعظموا أن يتزوّج رسول الله، وقد تجاوز الثالثة والخمسين، من فتاة صغيرة لم تتجاوز التّاسعة!... وربّما أحالوا ذلك إلى أنانيّة ظالمة بعثت إلى سوء اختيار.

وأقول: إنّ مثل هذا الكلام، يفترض أن لاينبعث إلاّ من عامل غيرة على عائشة، أن لا تُظْلَمَ ولا تشقى بمثل هذا الزّواج. وإلاّ،

---

[1] - رواه البخاري في كتاب النّكاح ومسلم في كتاب اللّباس.

[2] -حياة الصّحابة ٢/ ٥٠ و ٥٠١.

فليست ثمة مشكلة تبعث على استنكار أو نقد.

فهل من المؤرّخين أو المترجمين، قديماً أو حديثاً، من اكتشف أيّ دليل أو شبهة دليل على أنّ عائشة قد شقيت بذلك الزّواج، أو غُلِبَ على أمرها في إبرامه؟... بل هل في هؤلاء المؤرّخين والمترجمين من لم يعلم بأنّ عائشة كانت أسعد النّساء في المدينة كلّها بزوج؟. بل لقد أصبحت سعادتها بزواجها من رسول الله مثلاً يضرب وحديثاً يدور.

فما المشكلة التي تبعث هؤلاء النّاقدين على هذا الاستعظام أو الاستنكار؟

إنّ لدسّ الرّجل أَنفه فيما لا يعنيه ولا قبل له بفهمه، صوراً متفاوتة كثيرة، ولكنّك لن تجد صورة منها أبعث على الإشمئزاز، وأكثر ثقلاً وسماجة على النّفس، من هذه الصّورة... فما معنى أن يستنكر هؤلاء الناس زواجاً كانت عائشة التي هي صاحبته أسعد النّاس به، وما مصدر استعظامهم لحظّ ظلّت عائشة إلى آخر حياتها تتباهى به؟

ولكن فلنتساءل: ما هو مصدر هذه المفارقة في زواج يستهجنه هؤلاء الكاتبون، في حين أنّ صاحبته كانت من أسعد النّاس به؟...

مصدرها أنّ محمَّداً ﷺ ليس له - في ذهن هؤلاء المستنكرين -

أيّ مزية يعلو بها عن أيّ من الرّجال البارزين في الجزيرة العربيّة، وما النبوّة أو الرّسالة أو الوحي الإلهي عند هؤلاء، إلاّ وهم انساق إلى تصديقه من قد صدّقوه في ذلك، أو هي صناعة طاب لمحمَّد أن يمارسها مهنة لِنفسه بين النّاس، كما زعم ذلك بعض منهم .. غير أنّ محمَّداً ﷺ في يقين عائشة وأبويها، رَسول إلى النّاس كلّهم من عند الله عزّ وجلّ، ومن ثمّ فقد اختصّه الله تعالى بصفات وأخلاق وقُدُراتٍ، ميّزه بها عن النّاس أجمعين. وكان هذا اليقين المؤيّد بدلائله الواضحة هو سرّ سعادة عائشة بهذا الزّواج، كما كان سرّ سعادة أسرتها بتلك المصاهرة.

فأيّ منطق هذا الذي يبرر لأولئك المنكرين أن يجعلوا من إنكارهم لنبوة محمَّد ﷺ سلطاناً يفرضونه على كلّ من خالفهم في ذلك الإنكار، وما للمنطق - إن كان منطقاً حقّاً - يتحيّز إلى هؤلاء المنكرين ليعطيهم مثل هذا السّلطان على الآخرين، وهلا تحيّز للطّرف الثاني ليعطي لأربابه مثل هذا السّلطان ذاته على أولئك المنكرين؟ وأين هو سلطان الحرّيّة يحمي الأفكار والمعتقدات والرّغبات من أولي النّظرات الضيّقة وعشّاق الاستبداد ؟...

لأنّ هذه الفئة من النّاس أنكرت نبوّة رسول الله والمزايا النّادرة والعظيمة التّابعة لها، فاستهجنت هذا الزّواج، فقد حقّ

علـى النّـاس جميعـاً،وفي مقدّمتهـم عـائشة وأسرتهـا، أن ينـكروا مثل إنكـارهم ثـمّ أن يسـتهجنوا هـذا الـزّواج تمامـاً كاستهجانهم !!... ومهمـا شعرت عائشة بالسّـعادة في بيـت الـنّبوّة، فـإن عليهـا أن تهـدر هـذا الشّعور ولا تصدّقـه، احتراماً لإنكار تلك الفئة الشاذّة وانسجاماً مع مشاعر استهجانها !!...

بوسـعنا أن نحفـل بهـذا الكـلام الأرعـن، عندمـا نسـمع أنّ في المنطق منطقـاً يعطي لهـذه الفئـة مـن النّـاس حـقّ الولايـة على الآخريـن، مـن حيث يجرّد هـؤلاء الآخرين مـن رشدهم الّذي يتمتّعون به واختياراتهم التي أكرمهم الله بها.

ثم إنّي تلقّيت أثناء إشرافي على طبع هذا الكتاب وتصحيحه، رسالة من صديق في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، تتضمّـن نقاشـاً واجهه به، عبر شبكة الأنترنت، من عـرّف نفسه باسـم: مـايك، بـل إنّـي تلقيتهـا أثنـاء مراجعـتي لهـذا المقطـع الـذي أتحـدث فيـه عـن زواج رسـول الله بعائشـة، وعـن لغـو اللاغـين في ذلـك. وإنّها لموافقة تلفت النّظر، وتستثير العجب. كما ستجد الآن.

ويدور نقاش مايك هـذا حـول مـا يسـمّيه: استنكار الفطرة السّليمة لزواج رسول الله من طفلة لا يتجاوز عمرها التّاسعة.

ويتلخّص نقاش مـايك في أنّ زواج رسـول الله ﷺ مـن طفلـة لا تزال تلعب بـالدّمى، لا يتّفـق مـع الفطـرة الإنسـانيّة السّـليمة،

وربّما يستند مايك إلى أخبار كاذبة اختلقها بعض المتقوّلين على التّاريخ الإسلامي وسيرة رسول الله ﷺ. من ذلك قول أحدهم : إنّ محمَّداً بدأ يحلم بالاقتران بعائشة منذ أن كان عمرها بين الرّابعة والخامسة. ويلصق هذا الافتراء بصحيح البخاري !!...

ويرى مايك أنّ الرّغبة التي قادت رسول الله ﷺ إلى الزّواج من عائشة، وهي في تلك السنّ، ربّما كانت من آثار مرض جنسي يتمثّل في توجّه الشّهوة إلى الصّغيرات (Pedofhelia).

ويسأل مايك هذا الصَّديق، عبر الأنترنت، هل أنت موافق على أن يمارس الجنس رجل في الثّالثة والخمسين مع فتاة في التّاسعة؟... إذا كنت لا توافق، فأنت منافق. لأنّ دينك يسمح به. أمّا إن كنت موافقاً فإنّ كلّ ما يمكنني أن أقوله، هو أنّ عندي كثيراً من النّاس الّذين يرغبون في إقامة صلة معكم، ومع دينكم، للزّواج من فتياتكم اللائي لم يتجاوزن التّاسعة.

وإليك أيها القارئ الجواب الّذي وجّهته إلى مايك هذا، من خلال الصَّديق الّذي أطلعني على كلامه واعتراضه هذا:

**أولاً-** لم نقرأ في صحيح البخاري ولا غيره، أنّ رسول الله كان يحلم بالاقتران بعائشة منذ أن كان عمرها بين الرّابعة والخامسة، أي قبل وفاة خديجة. ولاشكَّ أنّه مجرّد تقوّل وقح

على البخاري، وتشويه مفتعل لمكانة رسول الله وأخلاقه الإنسانيّة السّامية. فإن لم يكن كذلك، فهو تلاعب ممجوج بما رواه الشَّيخان مسلم والبخاري في صحيحيهما عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ قال لها: (( أُرِيْتُكِ في المنام ثلاث ليال. جاءني بك الملَك في سَرَقةٍ من حرير. فيقول: هذه امرأتك. فأكشف عن وجهك فإذا أنت هي. فأقول: إن كان هذا من عند الله يُمْضِهِ )).

ولا أستبعد أن يكون ذلك التقوّل البارد الّذي لا أصل له، ترجمة مغلوطة متعمّدة لهذا الحديث الَّذي لا يفقهه إلاّ من عرف معنى الوحي والنبوّة، وعلم أنّ محمَّداً رسول الله إلى النّاس جميعاً، وأنّه مؤيّد بوحي من الله عزّ وجلّ.

**ثانياً** – إنّ محمَّداً لم يصطف لنفسه من بين الفتيات هذه الفتاة الصَّغيرة عائشة، ولم يتعلّق بها، على الرّغم من صغرها، ومن ثمّ فإنّه لم يذهب إلى أبويها ليلح عليهما أن يزوّجاه منها... ولم يقل ذلك أحد ممّن عني بالتّاريخ والسِّيرة.

وإنّما الَّذي حصل هو ما قد رواه البخاري وغيره، من أنّ خولة بنت حكيم جاءت إلى رسول الله فقالت: يارسول الله، ألا تتزوّج ؟ قال ومن؟ قالت: إن شئت بكراً وإن شئت ثيّباً. قال: من البكر ومن الثيِّب؟ قالت: أمّا البكر فعائشة بنت أحبّ خلق الله إليك. وأمّا الثيّب فسَودة، بنت زمعة، وقد آمنت بك

واتّبعتك. قال: فاذهبي واذكريهما عليَّ.. إلى آخر الحديث.

إذن، فقد كان رسول الله خالي الذّهن من البحث عن فتاة بعينها، وإنّما الّتي نبّهته إلى عائشة واقترحتها له، إنّما هي خولة، كل مافي الأمر أنّها اقْتُرِحَتْ له، وأنّه وافق مبدئياً. فأين هذا من تصوّر أنّ رسول الله كان يعاني من مرض الرّغبة في الأطفال؟!...

ثمَّ إنّ في اقتناع خولة بعائشة، زوجةً لرسول الله، وفي اقتراحها ذلك عليه، وفي موافقة والدي عائشة بدون تردّد[1] مايدلّ على أنّ هذا المشروع لم يكن فيه ما يقتضي الاستنكار من أيّ من المجتمع المكي عامّة أو المجتمع الإسلامي فيه خاصّة. وإنّا لنعلم أنّه لو كان في هذا المشروع المقتَرَح ما يتعارض مع الفطرة الإنسانيّة السّليمة التي يحتجّ بها السيِّد مايك، لوجد من أعلن معارضته له مدافعاً عن هذه الفطرة الإنسانيّة المزعومة. لاسيما وجلّ أهل مكّة آنذاك خصوم

---

[1] – إنّ قول أبي بكر لخولة عندما جاءت تخطب عائشة لرسول الله: وهل تصلح له وهي بنت أخيه، ليس استنكاراً للمشروع من حيث هو، وإنّما ظنّ أنّ الأخوة الإيمانية التي كانت معقودة بينه وبين رسول الله تجعل عائشة محرّمة عليه لأنّه عمّها... بدليل قول رسول الله له: إنّما أنت أخي في الإسلام.

ألدّاء لصاحب هذا المشروع.

**ثالثاً**– فإن قال السيِّد مايك: ولكن لاحجّة في رضا المجتمع المكّي بهذا النّوع من الزّواج، مادامت الفطرة الإنسانيّة لا تقر ( أن يمارس الجنسَ رجل في الثّالثة والخمسين مع فتاة في التّاسعة)، فإنّ الجواب الّذي ما ينبغي أن يغيب عن بال السيِّد مايك، وكلّ من يتمتّع بزاد من الثّقافة، هو أنّ ميقات النّضج الجنسي في الفتيات يختلف، باختلاف البيئة والمناخ. فالبلاد الحارّة كالجزيرة العربيّة وكثير من البلاد الأفريقيّة، تبلغ فيها الفتاة مرحلة الطّمث، ومن ثمّ مرحلة الأنوثة النّاضجة، في سنٍّ مبكّرة. إنّه لَشيءٌ مألوف في مصر مثلاً أن ترى الفتاة الطّمث وهي في العاشرة. وربّما رأته في كثير من مناطق نجد والسّودان ونيجيريا قبل ذلك. وهذا على النّقيض من البلاد الباردة التي تنطبق على آسيا الوسطى،وكثير من مناطق أوربة. فربّما تجاوزت الفتاة الرّابع عشرة دون أن ترى الطّمث.

وهذا هو الّذي يفسّر تعامل المجتمع المكّي مع مشروع زواج رسول الله من عائشة، وبإيجابيّة تامّة غير متكلّفة. إنّه ليس رضاً بوضع شاذ، ولكنّه انسجام طبيعي مع واقع المناخ والبيئة.

ولكن لايبعد أن يقول السيِّد مايك: فهب أنّ الأمر كذلك، ولكن أليس من الظّلم أن يقترن رجل أذبلت السَّنوات

الطّويلة زهرة حياته، ووصل أو كاد أن يصل من ارتشاف نعيمها إلى الثّمالة، بفتاة تقبل على الحياة من جديد، وأن يعمد فيجنيها وهي برعم لم يتفتّح؟...

والجواب الّذي لا يغيب أيضاً عن فكر أيّ باحث موضوعي، هو أنّ فارق مابين الظّلم وغيره لا يتجلّى في شعوري وشعور أمثال مايك تجاه هذا الأمر الّذي لسنا نحن أبطاله، ولسنا مصدر الغرم أو الغنم الّذي فيه. وإنّما يتجلّى هذا الفارق في شعور صاحبة العلاقة وأهلها المعنيين بالأمر.. إنّ الحبّ والكراهية هما اللذان يفصلان في هذه القضيّة،لا افتراضات الفضوليين وتصوّراتهم. ولو أتيح للسيّد مايك أن يطلع على مشاعر عائشة تجاه زواجها من محمَّد ﷺ، لأيقن أنّها كانت تعيش حياة أسعد زوجة في العالم بزوج. ولقد صرحت هي بذلك أكثر من مرّة. فما قيمة مشاعر الآخرين عندما تكون غريبة عن مشاعر صاحبة العلاقة؟

لقد تنازل إدوارد الثّامن عن عرش بريطانيا، بكلّ امتيازاته وذيوله، في سبيل حبّه لتلك التي كانت تتمتّع، كما قالوا، بنصف جمال، والتي طلّقت قبله مرّتين، فهل يملك مايك أن يتغلّب بحجّة المنطق التي يغار بها على سعادة إدوارد ومصلحته، على حجّة الحبّ الّذي هيمن على قلبه؟

وإدوارد الثّامن إنّما عشق امرأة من حيث هي جسد وروح، أمّا الّذين عشقوا محمَّداً فإنّما عشقوا في شخصه مولاهم الأكبر الّذي هو الله عزّ وجلّ. فكيف يفترض أحدنا أن يمتلك من غيرته الوهميّة على مصلحة عائشة حجّة نستطيع أن نتغلب بها على حجّة قلبها اللاهف بالحبّ لرسول الله الّذي بعث رحمةً للعالمين؟!...

**رابعاً**- إن قياس السيِّد مايك النّاس الّذين من حوله ومن شيعته، على رسول الله، في استحقاقهم الزّواج من فتيات صغيرات مسلمات، في مجتمعاتنا الإسلاميّة، قياس مع فارق كبير.

وبتعبير آخر: إنّ تقدّم شخص في مثل مكانة محمَّد رسول الله إلى العالم كافّة، إلى خطبة فتاة مسلمة في مثل سنّ عائشة، سيكون مصدر شرف وسعادة لها ولأسرتها بدون ريب. ولن يكون لذلك إلاّ شرط واحد هو يقين هذه الأسرة بالمكانة ذاتها التي يتمتّع بها هذا الرّجل الخاطب.

ونظراً إلى أنّه لن يوجد في العالم اليوم رجل يتبوّء المكانة التي كان يتمتّع بها محمَّد خاتم الرُّسل والأنبياء، إلى النّاس، فإنّ هذا الشَّرط لا ينطبق إلاّ عليه وحده من دون النّاس كلّهم إلى قيام السّاعة.

وأنا أعلم أنّ السيّد مايك لا يقيم وزناً لهذا الشّرط، ودليل

ذلك أنه يرى أنّ محمَّداً الّذي هو رسول الله في يقيننا ليس إلاّ كأيّ واحد من النّاس الّذين من حوله، والّذين سيغريهم بالزّواج من صغيرات مسلمات أسوة بمحمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام!... ولكنّي، كأيّ مسلم موقن بنبوّة محمَّد ﷺ ومكانته عند الله، لا أقيم بدوري أيّ وزن لتجاهل هذا الشَّرط.

إذن، فالحاجز الذي يقوم ما بيننا، ويمنعنا من الاجتماع على قناعة واحدة في هذا الأمر، هو أنّ السيِّد مايك لا يرى في شخص محمَّد أكثر من رجل عربيّ ادّعى لنفسه شأناً بين قومه، بل لعلّ قلبه لا يخلو - ككثير من أمثاله - من بعض الضغينة عليه، بينما نجزم نحن المسلمين بأنّه سيّد الرّسل والأنبياء وآخرهم بعثة إلى العالم كلّه، وبأنّ كثيراً من الرّسل والأنبياء السَّابقين قد أخبروا ببعثته ونوّهوا بعظيم مكانته.

إنّ من البداهة بمكان أنّ لكلٍّ من هذين التصوّرين منطقه الخاص به، في إدراك هذه المسألة وتقويمها. ومن أوضح الأدلّة على ما أقول أنه إذا جاء يوم صدّق فيه السيِّد مايك أنّ محمَّداً كان رسول الله إلى النّاس كافّة، تماماً كما أخبر عنه موسى وعيسى من قبل، وأنّه كان مؤيّداً بوحي من عند الله عزّ وجلّ، فلسوف يغيب عن ذهنه هذا الإشكال، وسيضمحلّ أمامه هذا المنطق الّذي يحتجّ به، وسيحلّ مكانه هذا المنطق الآخر

الّذي أفصح عنه وأخاطبه به الآن، تماماً ككثير من أمثاله الّذين اعتنقوا الإسلام، وودعوا أوهامهم السّابقة وقناعتهم العصبيّة إلى غير رجعة.

وأقول أخيراً لمايك:

يوم تفكّر بتجرّد.. وتوقن بأنّ محمَّداً لم يكن يدجّل على النّاس ويخدعهم عندما قدّم نفسه إليهم نبيّاً مرسلاً إلى النّاس جميعاً من ربّ العالمين، وتنظر إليه - أي إلى سيرته - بالعين التي كان ينظر بها إليه أصحابه الّذين من حوله، ستعلم أنّ الله هو الّذي اختار لرسوله هذه الفتاة، كما روى ذلك رسول الله لعائشة بعد زواجه منها، في الحديث الّذي سبق ذكره. وستوقن أنّ لهذا الاختيار الرّباني حكمة. وستهنّئ عائشة من كلّ قلبك بهذا الخير المتميّز الّذي حظيت به.

# فِي بَيْتِ ٱلنُّبُوَّةِ

دخلت عائشة بيت النبوّة زوجة لسيّدنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام. ولكنّها أقْبَلَتْ وهي تحمِل معها بقايا من صباها وطفولتها، فحفل بها كأفضل زوج لزوجة، ولكنّه قدّر أيضاً حداثة سنّها وحاجتها إلى الجوّ الّذي يتناسب مع حداثتها تلك.

فقد ورد في الصّحيح أنّه كان يسرّب إليها صواحبها يلاعبنها. وكان يتركها تضع رأسها على كتفه وهي خلفه مستترة به، لتنظر إلى الأحباش يلعبون بحرابهم في المسجد. قالت السيِّدة عائشة، تصف ذلك: كان يومَ عيد، يلعب فيه السودان بالدرق والحراب، فإمّا سألتُ النبيَّ ﷺ، وإمّا قال: تشتهين تنظرين؟ فقلت نعم. فأقامني وراءه، خدّي على خدّه، وهو يقول: (( دونكم يابني أرفدة )) حتى إذا مللت قال : (( حسبك ))[1].

وقد احتلّت السيِّدة عائشة في قلب النبيّ ﷺ منزلة رفيعة من المحبّة، لم يتبوّأ مثلها في قلبه بقيّة أمّهات المؤمنين. وربّما ثارت من

(١) –متّفق عليه، وهذا اللّفظ للبخاري.

ذلك غيرة لدى بعض أمّهات المؤمنين. قالت عائشة فيما يرويه البخاري: كان النّاس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، فاجتمع صواحبي إلى أمّ سلمة، فقلن: يا أمّ سلمة، والله إنّ النّاس يتحرّون بهداياهم يوم عائشة، وإنّا نريد الخير كما تريد عائشة، فمري رسول الله أن يأمر النّاس أن يهدوا إليه حيثما كان أو حيث دار، قالت فذكرت ذلك أمّ سلمة له، فأعرض عنها، ثم ذكرت له الثّانية فأعرض عنها، فلمّا كانت الثّالثة قال لها : يا أمّ سلمة لا تؤذيني في عائشة، فإنّه والله مانزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكنّ غيرها.

وكانت تسأله ﷺ: كيف حبّك لي؟ فيقول: كعقدة الحبل. قالت: فكنت أسأله: كيف العقدة يارسول الله؟ فيقول: هي على حالها[1].

وقد صحّ أنّه ﷺ قال لفاطمة رضي الله عنها: أي بنيّة ألست تحبّين ماأحبّ ؟ فقالت: بلى. قال: فأحبّي هذه، مشيراً إلى عائشة، وقد سأله عمرو بن العاص: من أحبّ النّاس إليك؟ قال عائشة. قال: ومن الرّجال؟ قال: أبوها.

وقد عُرفَ لدى الصحّابة شدة محبّة رسول الله لعائشة، حتّى

---

[1] - حلية الأولياء : ٢/ ٤٨.

إنَّ بعضهم يسمّيها حبيبة رسول الله. روى التّرمذي أنّ رجلاً نال من عائشة عند عمّار بن ياسر، فقال له: (( أغرب مقبوحاً منبوحاً أتؤذي حبيبة رسول الله ))[1].

ولقد كانت فاطمة رضي الله عنها في مقدّمة من عَرَفت وقدّرت هذه المزية، بل هذه المكانة التي تتبوّؤها عائشة من قلب رسول الله، فكانت فاطمة تخصها - من أجل ذلك - بما قد لا تناله منها سائر زوجاته ﷺ. من ذلك أنّها رضي الله عنها كانت تضن بالسرّ الذي باح لها به والدها عليه الصَّلاة والسَّلام قبيل وفاته، فلم تكشفه بعد وفاته إلاّ لعائشة رضي الله عنها.

فقد روى الشّيخان من حديث عائشة أنّ النبيّ ﷺ سارّ فاطمة فبكت بكاءً شديداً فلمّا رأى جزعها سارّها الثّانية فضحكت... فلمّا قام رسول الله ﷺ سألْتُها: ما قال لك رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم؟ قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله سرّه. فلمّا توفّي قلت: عزمتُ عليكِ بما لي عليكِ من الحقّ لَمَا حدّثتِني ما قال لك رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم. فقالت: أمّا الآن فنعم. أمّا حين سارّني في المرة الأولى فأخبرني أنّ جبريل كان يعارضه القرآن في كلّ سنة مرّة أو مرّتين، وأنّه عارضه الآن

---

[1] - رواه البخاري، وانظر البداية والنّهاية لابن كثير: ٧ /٢٤٠.

مرّتين، وإِنّي لا أرى الأجل إلاّ قد اقترب فاتّقي الله واصبري فإنّه نعم السّلف أنا لك. فبكيتُ بكائي الّذي رأيتِ. فلما رأى جزعي سارّني الثّانية، فقال: يافاطمة أما ترضين أن تكوني سيّدة نساء المؤمنين، أو سيّدة نساء هذه الأمّة؟ فضحكتُ ضحكي الّذي رأيتِ[1].

وحسبك كي تتبيّن سموّ الودّ الّذي تُدِلُّ به عائشة على فاطمة، أن تتأمّل في قول الأولى منهما للثّانية: عزمت عليك بما لي عليك من الحقّ، لما حدّثتني بما قال لك رسول الله.

غير أنّ هذه الخصيصة التي تميّزت بها عائشة لم تكن لتمنع المصطفى ﷺ من العدل في المعاملة بين زوجاته. فقد صحّ أنّه كان يسوّي بينهنّ جميعاً في المعاملة، حتّى إنّه ليقرع بينهنّ إذا أراد سفراً، ليكون ذلك أساساً لاختيار التي تصحبه منهن. وكان يعدل بينهن ويقول: (( اللهمّ هذه قسمتي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك ))[2].

* * *

---

[1] – متّفق عليه، واللّفظ لمسلم مختصراً.

[2] – رواه التّرمذي في كتاب النّكاح.

هذا، ولعّل من أهمّ أسباب هذا الحبّ المتميز الّذي سمت به عائشة على قريناتها، ما قد خصّها الله به من المزايا والفضائل التي لم تجتمع في غيرها.

من أبرز هذه المزايا ما كانت تتمتّع به من ذوق رفيع وأدب رائع، وفصاحة في اللّسان وسموّ وإشراق في البيان. أُنظر إلى قولها له، وقد استأذنها ذات ليلة أن يترك فراشها ويقوم فيتعبّد لربّه. إنّني أحبّ قربك، ولكنّي أوثر هواك. وانظر جميل تخريجها، ورائع تعقيبها يوم قال لها رسول الله ﷺ: إنّي لأعلم إذا كنت عنّي راضية، وإذا كنت عليّ غضبى. قالت: فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: أمّا إذا كنت عنّي راضية فإنّك تقولين: لا وربّ محمَّد، وإذا كنت غضبي قلت: لاوربّ إبراهيم. فعقبت عائشة على ذلك قائلة: أجل. والله يارسول الله ما أهجر إلا اسمك!...[1].

ولقد كانت بالإضافة إلى ذلك تعنى بمعرفة الأحكام وحفظ الأحاديث والرّواية عن رسول الله، والدّقة في درايتها وروايتها، وسأذكر فيما بعد، إن وفّق الله، نماذج من استدراكاتها على كثير من الصّحابة في فهم بعض الأحكام ورواية بعض الأحاديث.

---

[1] – البخاري في كتاب النّكاح، باب غيرة النّساء.

وكانت إلى جانب ذلك كثيرة العبادة والتبتّل، ويبدو أنّها أخذت قسطاً كبيراً من ذلك، من عبادة رسول الله التي كان يؤدّي قسماً كبيراً منها في حجرتها، فكان لها نصيب دائم من قيام اللّيل، وكانت تكثر الصّوم، وتأخذ نفسها بأفانين الزّهد طبقاً لما أوصاها به رسول الله. فقد قال لها، فيما رواه التّرمذي: (( إذا أردتِ اللّحوق بي، فليكْفِكِ من الدّنيا كزاد الرّاكب، وإيّاك ومجالسة الأغنياء، ولا تستخلقي ثوباً حتّى ترقعيه ))[1].

غير أنّ التزامها هذا بوصية رسول الله، لم يكن يمنعها من أن تحرص دائماً على أن لا يرى منها رسول الله ﷺ إلا مايسرّه، فلقد كانت كثيرة الاهتمام بمظهرها وزينتها من أجله.

روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ، فرأى في يديَّ فتخاتٍ من وَرِق. فقال: ماهذا ياعائشة؟ فقلت: صنعتهنّ أتزيّن لك يارسول الله. قال: أتؤدين زكاتهن؟ قلت: لا، أو ماشاء الله، قال: هو حسبك من النّار[2].

---

[1] – الترمذي في كتاب اللّباس.

[2] – أبو داود في كتاب الزّكاة. والفَتَخاتُ مفردها فَتْخَة، الخاتم الكبير. ولا نعلم خلافاً في أنّ وجوب الزّكاة في الورِق مشروط ببلوغه النّصاب، ←

وكانت تنصح النّساء أن يتزينّ لأزواجهن، قالت لإحداهن: إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي مقلتيك فتضعيهما أحسن ممّا هما فافعلي[1].

ولقد استمرّت محبّة رسول الله لعائشة في ثبات وتزايد إلى يوم وفاته ﷺ بل لعلّ مشاعر هذا الحبّ تجلّت قبيل وفاته

---

← وهو مئتا درهم أو خمس أواق، لما رواه الشّيخان من حديث أبي سعيد الخدري عن النّبي ﷺ أنّه قال:(( ليس فيما دون خمس أواق من الورِق صدقة )). وواضح أنّ (( الفتخات)) - وهي كما علمت خواتيم كبار كان النّساء يتختمن بها - لا تبلغ وحدها نصاباً. فينبغي أن يكون معنى كلام رسول الله لعائشة أن تضمّها إلى سائر ما عندها من الحليّ، فتؤدّي الزّكاة عن المجموع. هذا وقد اختلف العلماء في وجوب الزّكاة في الحليّ الّذي يتّخذ للزّينة فذهب عمر بن الخطّاب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو وابن عبّاس إلى وجوب الزّكاة فيه. وهو قول ابن المسيب وسعيد بن جبير وعطاء وابن سيرين، وإليه ذهب الثّوري وأصحاب الرأي.

وذهب عبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وعائشة، والشّعبي إلى أنّها غيرواجبة فيه. وهو مذهب مالك، وأحمد، وهو أظهر قولي الشّافعي. ولكلّ من المذهبين أدلّة من أحاديث مرفوعة وموقوفة. وقد رواها جميعاً الإمام الشّافعي في الأمّ، ثمّ قال: هذه المسألة ممّا أستخير الله تعالى فيه.

[1] - السيدة عائشة تأليف عبد الحميد طهماز، نقلاً عن سير أعلام النّبلاء.

كما لم تتجلّ من قبل.

عندما ألم به ﷺ المرض الّذي انتهى بوفاته، كان يقول وهو يطوف على نسائه متسائلاً: أين أنا غداً ؟... أين أنا بعد غد؟... كان يقول ذلك استبطاء ليوم عائشة. فطابت نفوس بقيّة أمّهات المؤمنين، بأن يمرَّضِ رسول الله ﷺ حيث أحبّ. وأذن له في أن يمرَّض في بيت عائشة[1].

وكان له ﷺ ماأراد، فانتقل إلى بيت عائشة، وسهرت على رعايته وتمريضه، إلى أن توفّاه الله عزّ وجلّ.

قالت عائشة، تصف اللّحظات الأخيرة من حياة رسول الله وحياتها معه:

إنّ الله جمع بين ريقي وريقه عند موته. دخل عليّ عبد الرحمن، وبيده السّواك، وأنا مسندة رسول اللهﷺ، فرأيته ينظر إليه. وعرفت أنّه يحبّ السّواك. فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم. فتناولَهُ، فاشتدّ عليه. فقلت: ألّينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم. فأخذته فمضغته ونفضته وطيّبته، ثمّ دفعته إليه، فاستنّ به كأحسن ما رأيته مستناً قط. ثم ذهب يرفعه إليّ، فسقطت يده. فأخذت أدعو له بدعاء كان يدعو به له جبريل،

---

[1] - صحيح مسلم، باب فضل عائشة، وانظر تارخ الطبري: ١٩١/٣.

وكان هو يدعو به لنفسه إذا مرض، فرجع بصره إلى السماء وقال: (( الرّفيق الأعلى )) وفاضت نفسه.. تقول عائشة: فالحمد لله الّذي جمع بين ريقي وريقه في آخر يوم من الدّنيا[1].

* * *

ولكن كيف كانت معيشتها مع رسول الله في النبوّة وفي ظل هذا الحبّ ؟

قد يخيّل للبعض أنّها كانت معيشة متعة ورغد، وأنّ رسول الله كان يوفّر لها، بمقتضى هذا الحبّ، كلّ أسباب اللّذائذ والنّعيم.

غير أنّ الأمر لم يكن كذلك. قالت تحدث ابن أختها عروة عن حياتها المعيشيّة مع رسول الله ﷺ: ابن أختي، إنْ كنّا لننظر إلى الهلال ثمّ الهلال، ثمّ الهلال، ثلاثة أهلّة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله نار. قال لها: فما كان يُعيشكم؟! قالت: الأسودان التّمر والماء[2].

---

[1] - أخرجه أحمد في مسنده:٦/٤٨ والحاكم، في فضل الصّحابة : ٤/٧.
والحديث متّفق عليه بألفاظ قريبة.

[2] - البخاري في كتاب الرّقاق، ومسلم في كتاب الزّهد والرّقاق.

ووصفت بيت رسول الله يوم وفاته، فقالت: توفّي رسول الله، وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلاّ شطر شعير في رفٍ لي، فأكلت منه حتّى طال عليّ"[1].

وقد دفعت هذه الشدّة أمّهات المؤمنين، وفيهنّ عائشة، إلى أن يسألن رسول الله ﷺ توسيع النّفقة عليهن، بحيث يعلو وضعهنّ المعيشي إلى مثل حال أدنى نساء الصّحابة. فغضب عليه الصّلاة والسَلام، واعتزلهنّ مدّة من الزّمن. وأنزل الله على رسول الله ﷺ قوله:

﴿ياأيُّها النبيُّ قُل لأزواجكَ إن كُنتُنَّ تُردنَ الحياةَ الدّنيا وزينتَها، فتعالَينّ أُمتِّعْكُنَّ وأسرِّحكُنَّ سَراحاً جَميلاً، وإن كُنتُنَّ ترِدنَ الله ورَسولَهُ والدّارَ الآخِرةَ، فإنَّ الله أعدّ للمحسناتِ منكُنَّ أجراً عَظِيماً﴾. الأحزاب: ٢٨ و ٢٩.

فدعاهنّ رسول الله ﷺ، وخيّرهنّ بين هذين الخيارين اللذين ذكرهما الله تعالى. وهما الاستجابة لرغباتهنّ في تحسين أوضاعهنّ المعيشيّة، ويفارقهنّ إلى غير رجعة، والصّبر على ما هو عليه من الزّهد وشظف العيش. ولهنّ على ذلك الثّواب الجزيل والعوض الوفير في الدّار الآخرة.

---

[1] - رواه مسلم في كتاب الزّهد والرّقاق.

وبدأ بالسيِّدة عائشة، يخيّرها، وقال لها : (( إنّي ذاكرٌ لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلي حتّى تستأمري أبويك )) وذكر لها التّخيير الّذي أمر الله عزّ وجلّ به. فقالت له: أفيك أستشير أبوي !... بل أريد الله ورسولَهُ والدّار الآخرة[1]. واختارت بقيّة أزواجه مثل ما اختارت.

---

[1] - البخاري ومسلم بألفاظ متقاربة.

في النّاس اليوم من قد أشبعوا بالتصوّر الهابط لمعنى الحبّ، ولا يبعد إن أصغوا إلى هذا الّذي قلناه، أن يلوّنوا حبّ رسول الله لعائشة أو بقيّة نسائه بألوان الطّيف الّذي يجول في خواطرهم، وأن ينعتوه بالصّفات التي استقرّت في نفوسهم.

وبالمقابل، فإنّ في المثقّفين الإسلاميين السّطحيين، من يغض الطّرف عن كلّ هذا الّذي ذكرناه، ويتجاوزه أو يتجاهله في المناسبات، كي لا يحرج نفسه في أمر، يخيّل إليه، من ضيق درايته أنه لن يهتدي إلى سبيل للخروج منه. بل ربّما تجاهل، من أجل ذلك، حديثاً صحيحاً ومشهوراً وهو قول رسول الله ﷺ: (( حُبّب إليّ من دنياكم الطّيب والنّساء، وجُعِلَتْ قرّة عيني في الصّلاة ))[1].

ولعلّ هذا التّجاهل ينطوي على شرّ من ذلك التصور الهابط عند أصحابه.

غير أنّ الحقيقة التي لا تخفى على أيّ متدبّر، درس سيرة رسول الله من مبدئها إلى نهايتها، هي أنّ هذه المزية التي عرفناها

---

[1] – رواه النّسائي وأحمد.

لرسول الله، من خلال هذا الّذي ذكرناه، تبرز أمامنا فضيلة من أجلّ الفضائل التي كان يتّصف بها عليه الصلاة والسّلام، وتضعنا أمام مظهر فريد من سموّ إنسانيّته وصفاء فطرته. بل تكشف لنا جانباً من أهمّ جوانب الرّسالة النبويّة التي بُعِثَ بها رسول الله إلى النّاس مربّياً ومعلّماً.

وخلاصة القول أن محمَّداً ﷺ إنّما بعث ليتمّم مكارم الأخلاق، كما قال عن نفسه. وما من نهج ينهجه الإنسان في حياته أوعلاقاته، إلا وله وجهان: وجه سوء و فساد، ووجه خير وإصلاح. وقد كانت المهمّة التي بعث بها المصطفى عليه الصّلاة والسّلام، هي أن يسلك بالنّاس السّبيل إلى الوجه الأمثل، وهو وجه الخير والإصلاح، في كلّ علاقة أو سلوك بكلّ من بيانه القولي النّاصح، وسلوكه العملي الشارح.

فقد كان العرب عند بعثة رسول اللّه يعتدّون بمعاني المروءة والشّهامة والنّخوة، ولكنّهم كانوا يمارسون هذه المعاني من وجهها المفسد لا المصلح. وكانت للشّرف عندهم قيمة كبرى، ولكنّهم لم يكونوا يفهمون المحافظة على الشّرف - في الغالب - إلاّ من خلال وجهه الفاسد. وكانوا يحفلون بمشاعر الحبّ للمرأة، ويترجمون الكثير من هذه المشاعر في أشعارهم الغزليّة، ومن خلال علاقاتهم الجنسيّة.

غير أنّهم كانوا يمارسون هذا الحبّ من وجهه الثّاني، أي الأناني واللا أخلاقي الأرعن.

فكان حبّ الرّجل العربيّ للمرأة، في العصر الجاهلي، ترجمان حاجته الغريزيّة إليها، حتّى إذا تحقّقت رغبته فيها وأشبعت نفسه منها، تحوّلت إلى متاع مطروح في زاوية الدّار، تُملك ولا تَملك. وتَأْتَمِرُ دون أن تَأْمُرَ، وتعنو لحقّ الرّجل دون أن يعنو الرّجل لأيّ من حقوقها... فإذا اهتاجت بالرّجل الغريزة ثانية، عاد إلى أنشودة غزله، وترانيم حبّه، سعياً وراء إشباع أنانيتّه من خلال لغة تَوْقِه ووجده، حتّى إذا وصل إلى ماأراد، عاد فطرح المتاع في مكانه، وأعرض عنه كسابق عهده. فهي حقّاً - أي المرأة - كما قالوا عنها: إنّما أنت لعبة في زاوية الدّار، يتمتّع بك المحتاج.

فبعثة رسول الله ﷺ إنّما كانت لتصحيح هذه الأوضاع ولتقويم هذه السلوكيات ولإبراز الوجه الإنساني الصّحيح لهذه العلاقات المقلوبة والمفاهيم المنكسة. ولعلّ مفهوم علاقة الرّجل بالمرأة وأساس ذلك من الحبّ السّاري بينهما، من أخطر هذه الأوضاع وأحوجها إلى الرّعاية والتّقويم.

ومهمّة رسول الله ﷺ في تصحيح هذه الأوضاع وإبراز الشّكل الاجتماعي والإِنساني الصّحيح لها، لم تكن عن طريق

الوصايا والتّعليمات النّظريّة فحسب، بل كانت أيضاً - وهذا هو الأهمّ - عن طريق الأسوة والقدوة السّلوكيّة. وتلك هي الحكمة من أنّ الله عزّ وجلّ صاغ منه عليه الصّلاة والسّلام القدوة المثلى في الأخلاق الإنسانيّة الرّاشدة، والعلاقات الاجتماعيّة السّليمة، ورعاية الغرائز الإنسانيّة على نهجها القويم.

إذن، فقد كان لابدّ - لكي يتأتّى لرسول الله أن يصحّح مفهوم حبّ الرّجل للمرأة ويَقبلهُ إلى وجهه الإنساني السّليم - أن يُريَ العرب والنّاس جميعاً من نفسه وسيلة إيضاح عمليّة ومظهر قدوة سلوكيّة، تماماً كما أرانا من خلال أخلاقه الإنسانيّة العامّة وعلاقاته مع الآخرين، الوجه الصّحيح، بل الأمثل أيضاً للنهج الّذي ينبغي أن تسير على وفقه الحياة الاجتماعية في كلّ عصر.

فمن هنا برزت لنا في حياته ﷺ الصّورة الإنسانيّة والاجتماعية المثلى لعلاقة ما بين الرّجل والمرأة عموماً، وحبّ الرّجل للمرأة خصوصاً، كما برزت لنا في حياته ذاتها الصّورة الإنسانيّة المثلى للأخلاق والعلاقات الاجتماعيّة الأخرى[1].

---

[1] - انظر كتاب: المرأة بين طغيان النّظام الغربي ولطائف التّشريع الرّباني، للمؤلف. ص ١٨٣ و١٨٤.

أجل ... لقد لفت نظرنا من خلال سلوكه إلى حبّه لعائشة وخصوصيّة هذه العلاقة معها، كما لفت نظرنا إلى حبّه للمرأة من خلال قوله: (( حُبِّب إليّ من دنياكم الطّيب والنّساء، وجُعِلتْ قرّة عيني في الصّلاة )). ولكّنا نظرنا، فوجدنا أنه يضعنا من هذا الحبّ أمام أسمى صورة إنسانيّة لعلاقة ما بين الرّجل والمرأة. ورأينا أنّ حبّه لعائشة خاصّة وللمرأة بصفة عامّة، نابع من مصدر التّكريم لها والسّمو بمكانتها والتّقديس لمعنى ( السكن ) الذي نسجته يد الحكمة الرّبّانيّة فيما بين الرّجل وبينها.

ونظرنا، فوجدناه يترجم هذا الحبّ إلى المكانة الاجتماعيّة الباسقة التي بوّأ المرأة فيها: فأهليتها غدت في ظلّ الإسلام كاملة، تستشار كالرّجل، فتشير، فتطاع في كلّ رأي سليم. وكان رسول الله أوّل من استشارها، فأشارت عليه، فانطلق ينفذ مشورتها[1] وتتعاقد مع الرّجال وتقاضيهم إلى ميزان العدالة، وترث وتورّث، وتستحقّ من الأجر على العمل الذي تتقنه كالّذي يستحقّه الرّجل على السّواء.

---

[1] – كان ذلك بعد صلح الحديبية، والمرأة التي استشارها هي أمّ سلمة رضي الله عنها، وقد أشارت عليه، واستجاب لرأيها (البخاري في كتاب الشّروط).

وأصغينا إليه، وهو يزيد لغة حبّه هذا جلاء وإيضاحاً، فإذا هو يقول:

(( إنّما النّساء شقائق الرّجال. ما أكرمهنّ إلاّ كريم وما أهانهنّ إلاّ لئيم ))[١].

ويقول: (( خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي ))[٢].

ويقول: (( استوصوا بالنّساء خيراً... ))[٣].

وهكذا، فإنّ حبّه ﷺ للمرأة عموماً، ولعائشة خاصّة، كان وسيلة إيضاح عمليّة لما يجب أن تكون عليه علاقة الرّجل بالمرأة في ظلّ الفطرة والغريزة الإنسانيّة. والقدوة التي جعل الله منه ﷺ مصدراً وإماماً لها، لا يتحقّق معناها بين النّاس بالنّصائح والأقوال، وإنّما يتجسّد معناها بالسّلوك والأفعال.

ثمّ تأمّل في التّفسير العملي، لحبّه ﷺ، للمرأة، ولعائشة، كنموذج لها، أفترىَ في هذا الحبّ ما قد يشين أو ما قد يهبط بمكانته الأخلاقيّة إلى أيّ نهج أو سلوك يزري بأيّ من المبادئ الإنسانيّة أو القيم الأخلاقيّة أو الأحكام الإسلاميّة ؟.

---

(١) – رواه أحمد في مسنده.

(٢) – رواه الحاكم في المستدرك بسند صحيح.

(٣) – متّفق عليه.

لو كان حبّه هـذا، لحاقـاً منـه بالمتعـة والأهـواء، إذن لظهـر ذلك في نوع المعيشة التي كانت معروفة في بيت النبوّة، ولما رأينـا حياة عائشة معه أو حياته معها قائمة على الشَّظف والزُّهـد. ولما خيّرها وخيّر صواحباتها، عندما رغبن في المزيد من متعـة العيش، بين الطّلاق مع ما يطلبنه من التّمتيع، وإيثار الدّار الآخـرة والبقـاء مع رسول الله مع الصّبر على شـظف العيـش... بـل كـان ينبغـي أن نرى رسول الله المحبّ، أسبق إلى الرّغبـة في تمتيـع نسـائه بزينـة الدّنيا ورغدها، من رغبتهنّ في ذلك.

لو نطق الإسلام بحديث يعـرّف مـن خلالـه النّـاس علـى ذاتـه وأبرز خصائصه، لقال: إنّ نسيجه التّكويـني يتـألّف مـن الحـبّ.. ولو نطـق هـذا الحـبّ معرّفـاً النّـاس علـى هويتـه الفطريـة الخاليـة عن الشّوائب، لقال: إن هويّته المثلى تتجلّى في حبّ رسول الله.

*　　　*　　　*

# حَدِيثُ ٱلإِفْك :

كان في المدينة ثلّة من المنافقين الّذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، طمعاً في مغانم الإسلام وتوقّياً من مغبّة معاداته. وكان يرأسهم في النّفاق عبد الله بن أُبَي بن سلول. وكان بينه وبين يهود بني النّضير حلف وولاء، وكان بينه وبين يهود بني قينقاع ولاء وودّ.

ولمّا أُجْلي يهود بني النّضير وبني قينقاع من المدينة، بعد الخيانة التي بدرت منهم، أوقعه ذلك في غمّ كبير وزجّه في وحشة لم يكن يتوقّعها. فقد كان يعلّق آمالاً كبيرة على وجود هاتين القبيلتين اليهوديّتين في المدينة!.. ولم يجد متنفّساً عن غمّه ووحشته اللّتين مني بهما إلاّ بالاندفاع إلى ماقد يمكّنه من إيذاء رسول الله وأصحابه الأنصار والمهاجرين، فكان لا يألو جهداً في بعث أسباب الفتنة والإيذاء فيهم، كلّما أمكنته الفرصة ووجد إلى ذلك من سبيل.

في غزوة بني المصطلق، التي كانت في شهر شعبان من السّنة الخامسة للهجرة، تشاجر غلام لعمر بن الخطّاب مع غلام

أنصاري، عند ماءٍ حيث يعسكر المسلمون، إسمه ماء المريسيع.
فسمع ابن سلول شجارهما، فصاح قائلاً:
(( كاثرونا في ديارنا ؟!... والله ما أرانا وجلابيب قريش إلاّ كما قال المثل : سمّن كلبك يأكلك. والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ ))[1].

ولمّا بلغ رسولَ الله كلامُهُ هذا، صفح عنه وتجاهل الأمر، وهدّأ من ثورة من اقترح من الصّحابة قتله. ونامت الفتنة؛ فزاده ذلك ضغينة وكرباً، ثمّ اهتاج به الكرب عندما انفضّ عنه جمع ممّن كانوا معه، متأثّرين بموقف رسول الله وحلمه الّذي فاق كلّ توقّع وتصوّر.

فراح يبحث - وقد اهتاج به الحقد من جراء فشله الذّريع - عن أيّ سبيل يتسرّب منه إلى إيذاء رسول الله ﷺ ....

وفيما هو كذلك، إذ عثر على الخبر الّذي ذكرته عائشة، عمّا وقع لها خلال عودة رسول الله مع الجيش إلى المدينة من غزوة بني المصطلق .... فبنى ابن سلول على ذلك الخبر ماطاب له أن يبنيه، من قذف عائشة واتّهامها بالفاحشة، أملاً في أن يُلحق ذلك، من الأذى برسول الله ما يَشفي غليلَه،

---

[1] -طبقات ابن سعد: ١٠٧/٢ وسيرة ابن هشام:٢٩٠/٢.

ويعوّضه عن المهانة والفضيحة اللّتين مني بهما.

فما هو هذا الخبر؟ وكيف بنى عليه ابن سلول التّهمة التي نسجها ؟.

تقول عائشة لمّا فرغ رسول الله من غزوته تلك، وقفل، آذن ليلة بالرّحيل، فقمت إلى بعض شأني. فلمّا رجعت إلى الرّحل، لمست صدري فإذا عقدي قد انقطع فرجعت فالتمسته، فحبسني ابتغاؤه. قالت: وأقبل الرّهط الّذين كانوا يرحّلوني، فاحتملوا هودجي - وكان ذلك بعد نزول آية الحجاب - فرحّلوه على بعيري الّذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون أنّني فيه. فبعثوا الجمل فساروا. ووجدت عقدي بعدما استمرّ الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها داع ولا مجيب، فيمّمت منزلي الذي كنت به، وظننت أنّهم سيفقدونني فيرجعون إليّ. وكان صفوان بن المعطل من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما تكلّمنا بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتّى أناخ راحلته، فقمت إليها فركبتها. فانطلق يقود بي الرّاحلة، حتّى أتينا الجيش موغرين في حرّ الظّهيرة، وهم نزول. فهلك من هلك في شأني وكان الّذي تولّى كبر الإفك عبد الله بن أُبَي بن سلول.

قالت: واشتكيت حين قدمنا المدينة، شهراً. والنّاس يفيضون في قول الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك. غير أنّي لا أعرف من رسول الله عليه الصّلاة والسّلام اللّطف الّذي أرى منه حين أشتكي. إنّما يدخل فيسلّم، ثم يقول: كيف تيكم؟ فلمّا نَقِهْتُ، خرجت ذات ليلة مع أمّ مسطح لقضاء حاجة، ولم نكن قد اتّخذنا الكنف. فلمّا رجعنا عثرت أمّ مسطح في مرطها. فقالت: تعس مسطح. فقلت لها : بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدراً ؟! قالت: أو لم تسمعي بما قال: قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي.. وبكيت تلك اللّيلة حتّى أصبحت، لايرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم.

وأخذ رسول الله ﷺ يستشير بعض أصحابه في الأمر وفي فراق أهله. فمنهم من يقول يارسول الله، أهلك، ولا نعلم إلاّ خيراً. ومنهم من يقول: لم يضيّق الله عليك، والنّساء كثير، واسأل الجارية، يعني بريرة، تصدقك. فدعا رسول الله بريرة، وسألها: هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟... فأخبرته أنّها لم تعلم عنها إلاّ الخير. فقام عليه الصّلاة والسّلام على المنبر، فقال: يامعشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلاّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً. فقام سعد بن معاذ

فقال: أنا أعذرك منه يارسول الله - إن كان من الأوس ضربنا عنقه. وإن كان من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. فتلاغط النّاس في المسجد حتّى أسكتهم رسول الله.

قالت عائشة: ثمّ دخل عليّ رسول الله وأبواي عندي. وهما يظنّان أنّ البكاء فالق كبدي. ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل. وقد لبث شهراً لا يُوحَى إليه في شأني بشيء. قالت: فتشهّد حين جلس. ثمّ قال: أمّا بعد ياعائشة، فإنّه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله. وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه. قالت: فلمّا قضى رسول الله مقالته، قلص دمعي حتّى ما أحسّ منه بقطرة. فقلت لأبي: أجب عنّي رسول الله. فقال: والله ما أدري ما أقول. فقلت لأمّي أجيبي عنّي، فقالت: والله ماأدري ماأقول. فقلت: والله لقد عرفت أنّكم قد سمعتم بهذا، حتّى استقرّ في نفوسكم وصدّقتم به. فإن قلت لكم إنّي بريئة - والله يعلم أنّي بريئة - لا تصدّقوني في ذلك. ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أنّي بريئة - لتصدّقنّي. إنّي والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلاّ كما قال أبو يوسف: ﴿ فصبرٌ جميل والله المستَعان على ما تصفون ﴾ قالت: ثم تحوّلت فاضطجعت على فراشي.

قالت: فوالله، مارام رسول الله مجلسه، ولا خرج من أهل

البيت أحد، حتّى أنزل الله عزّ وجلّ على نبيه ﷺ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتّى إنّه ليتحدّر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشات من ثقل القول الّذي أنزل عليه. قالت فسرّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك. فكان أوّل كلمة تكلّم بها أن قال: أبشري ياعائشة، أمّا الله فقد برّأكِ. فقالت أمّي: قومي إليه (أي اشكريه) فقلت لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلاّ الله، هو الّذي أنزل براءتي. قالت: فأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿ إنّ الّذين جاؤوا بالإفك عصبةٌ منكم، لا تحسبوه شرّاً لكم، بل هو خيرٌ لكم. لكلّ امرئ منهم ما اكتسب من الإثم. والّذي تولّى كبرَه منهم له عذاب عظيم ﴾ إلى آخر عشر آيات (النور: ١١).

قالت: وكان أبي ينفق على مسطح لقرابته منه ولفقره. فقال: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الّذي قال لعائشة. فأنزل الله عزّوجلّ:

﴿ ولايأتِل أولو الفضل منكم والسَّعة أن يؤتوا أولي القربى ﴾ إلى قوله : ﴿ ألا تحبّون أن يغفر الله لكم والله غفورٌ رحيم ﴾ (النور: ٢٢).

فقال أبو بكر: بلى والله إنّي لأحبّ أن يغفر الله لي. فرجع

إلى مسطح النّفقة التي كان ينفقها عليه.

ثمّ خرج ﷺ إلى النّاس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله تعالى من القرآن في ذلك. ثمّ أمر بمسطح بن أثاثة، وحسّان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، وكانوا ممّن أفصح بالفاحشة، فضربوا حدّهم.[1]

* * *

بعد هذا الّذي أصغينا إليه من كلام عائشة رضي الله عنها، وهي تقصّ علينا محنتها بهذا الإفك، يجدر بنا أن نقف على بعض النّقاط الهامّة في هذه المسألة:

**أولاً**: يبدو من هذا الّذي أصغينا إليه، أنّ حديث الإفك هذا يمثل حلقة فريدة في سلسلة فنون الأذية والمحن التي لقيها رسول الله من أعدائه. فلقد كانت هذه الأذية أشدّ في وقعها على نفسه من كل تلك المحن السّابقة التي ألمّت به. وتلك هي طبيعة الشرّ الذي يصدر من المنافقين، فالشّأن فيه أن يكون دائماً أقسى من غيره وأبلغ في إيصال المكيدة والغدر، إذ تكون الفرص والأسباب مهيّأة لهم أكثر من غيرهم.

---

[1] - رواه الشّيخان، وأحمد، وابن ماجه وأبو داود وابن إسحاق، بألفاظ متقاربة.

إنّ سائر المحن التي واجهها من قبل، أمور متوقّعة بالنّسبة إليه، بل كان يعلم أنّه منها على ميعاد، لذا فقد وطّن نفسه لقبولها وتحمّلها، طبقاً لما كان يوصيه به كتاب الله عزّ وجلّ.

أمّا حديث الإفك هذا، فقد فوجئ به... لذا فلقد واجهته منه محنة قاسية تختلف عن كلّ ما قد اعتاد عليه من الأذيات السّابقة. إنّها شائعة تحتمل، من حيث طبيعتها، الصّدق والكذب. ولو صحّت لكانت طعنةً نجلاء في أخصّ ما يعتزّ به إنسان، أخصّ ما يتّصف به الشّرف والكرامة. ولكن ماالّذي يدريه أنّها شائعة باطلة أو صحيحة ؟!...

فمن هنا كانت هذه الأذيّة أبلغ في تأثيرها من كلّ ماعداها... ومن هنا، فإنّها ألقت بشعوره النّفساني، ﷺ ، في اضطراب لا مناص له منه.

ومع ذلك، فإنّ الوحي لو سارع إلى كشف الحقيقة وفضح إفك المنافقين، لكان في ذلك منجاة من هذا الاضطراب والشّكوك المثيرة. ولكن الوحي - لأمر ما - تلبث أكثر من شهر لا يعلق على هذه الشّائعة بشيء، فكان له من ذلك مصدر قلق آخر.

**ثانياً**: من الواضح أنّ محنة الإفك هذه، جاءت منطوية على حكمة إلهيّة كبرى، تمثّلت في إبراز حقيقة النبوّة في شخص

محمَّد ﷺ، وإظهارها صافية عن كلّ ما قد يلتبس بها.

إنّ معنى النبوّة في حياته ﷺ كان من الممكن أن يبقى ممزوجاً، لدى أولي الرّيب والظّنون، ببعض الشّبهات التي تخيّل إليهم أنّ نبوّته شيء صادر من دخيلة نفسه وثمرات فكره، لو لم تأت حادثة الإفك هذه لتهزّ شخصيّته النبويّة هزّاً قويّاً، يفصل إنسانيّته وكيانه البشري عن حقيقة النبوّة الصّافية لديه، ثم لتجلي ظاهرة الوحي بجلية تامة أمام الأنظار والأفكار، بحيث لا يبقى أيّ مجال للالتباس بينه وبين أيّ معنى من المعاني النّفسيّة والشّعوريّة المنبثقة من داخل الذات.

لقد لاحظنا أنّ هذه الشّائعة فاجأت سمع النبيّ ﷺ، وهو في طور من إنسانيّته العاديّة، يتصرّف ويتأمّل ويفكّر كأيّ فرد من النّاس ضمن حدود بشريّته وإنسانيّته، ليس له اطلاع على غيب مكنون ولا ضمير مجهول، ولا على قصد ملفق كاذب، فاضطرب كما يضطربون، وارتاب كما يرتابون، وأخذ يقلب الرّأي على وجوهه، ويستنجد في ذلك بمشورة أولي الرّأي من أصحابه.

وكان من مقتضى الحكمة الإلهيّة في إبراز هذا الجانب الإنساني المجرّد فيه، أن يتأخّر الوحي كلّ هذه المدّة التي تأخّرها، كي تتجلّى للنّاس في شخصه حقيقتان اثنتان، كلّ منهما على

غاية من الأهميّة.

أمّا الحقيقة الأولى، فهي أنّ النبيّ ﷺ لم يخرج بنبوّته ورسالته عن كونه بشراً من النّاس، فلا ينبغي لمن آمن به أن يتصوّر أنّ النبوّة تجاوزت به حدود البشرية، فينسب إليه من الأمور أو التأثير في الأشياء مالا يجوز أن ينسب إلا إلى الله وحده.

وأمّا الحقيقة الثّانية، فهي أنّ الوحي الإلهي لم يكن شعوراً نفسيّاً منبثقاً من كيان محمَّد عليه الصّلاة والسّلام، كما أنّه لم يكن شيئاً خاضعاً لإرادته أو تطلّعه وأمنياته. إذ لو كان كذلك، لكان من السّهل عليه، بل المطلوب منه أن ينهي هذه المشكلة من يوم ميلادها، وأن يريح نفسه من ذيولها ونتائجها، ويجعل مما يعتقد من الخير والاستقامة في أهله، قرآناً يصوغه ليطمئن به أصحابه المؤمنين، ويسكت الآخرين من ذوي الفضول... غير أنّه لم يفعل شيئاً من ذلك، وظلّ يعاني من اضطرابه وغليان شكوكه، لأنّه لا يملك ذلك.

يقول الدّكتور محمَّد عبد الله دراز في كتابه «النّبأ العظيم» موضحاً هذه الحقيقة الهامّة:

«ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة

رضي الله عنها، وأبطأ الوحي وطال الأمر والنّاس يخوضون، حتّى بلغت القلوب الحناجر، وهو لايستطيع إلاّ أن يقول بكلّ تحفّظ واحتراز: (( إنّي لا أعلم عنها إلاّ خيراً )) ثمّ إنّه بعد أن بذل جهده في التحرّي والسّؤال واستشارة الأصحاب، ومضى شهر بأكمله، والكلّ يقولون: ما علمنا عليها من سوء، لم يزد على أن قال لها آخر مرّة : (( يا عائشة أما إنّه بلغني كذا وكذا، فإن كنت برئية فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله )).

هذا كلامه بوحي ضميره، وهو كما ترى كلام البشر الّذي لا يعلم الغيب، وكلام الصديق المتثبت الذي لا يتبع الظنّ ولا يقول ماليس له به علم، على أنّه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات، حتّى نزل صدر سورة النّور معلناً براءتها، ومصدراً الحكم المبرم بشرفها وطهارتها.

فماذا كان يمنعه، لو أن أمر القرآن إليه، أن يتقوّل هذه الكلمات الحاسمة من قبلُ، ليحمي بها عرضه، ويذبّ بها عن عرينه، وينسبها إلى الوحي السّماوي، لتنقطع ألسنة المتخرصين؟... ولكنه ما كان ليذر الكذب على النّاس ويكذب على الله ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين ثمّ لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين ﴾ (الحاقة:

٤٤- ٤٧)[1].

أقول: ولقد كانت السيّدة عائشة أوّل من تجلّت له هاتان الحقيقتان، حتّى ذهبت في توحيدها وعبوديّتها لله وحده، مذهباً أنساها ما سواه ومن سواه، فلذلك أجابت أمّها حينما طلبت إليها أن تقوم فتشكر النبيّ ﷺ قائلة: لا أقوم إليه ولا أحمد إلاّ الله، هو الّذي أنزل براءتي.

إنّ هذا الكلام قد يبدو وكأنّ فيه شيئاً من عدم اللّياقة تجاه رسول الله ﷺ. غير أنّ الظّرف والحالة هما اللّذان أمليا عليها هذا الكلام، فهي إنّما انساقت بوحي الحالة التي كوّنتها الحكمة الإلهيّة، تثبيتاً لعقيدة المؤمنين، وقطعاً لإفك المنافقين والجاحدين، وإظهاراً لمعنى التّوحيد والعبوديّة الشّاملة لله عزّ وجلّ وحده.

فتلك هي قيمة تبرئة القرآن للسيّدة عائشة من هذه التّهمة.

أي إنّ هذا الوضع الّذي مرّ به رسول الله خلال شهر كامل أكّد حقيقتين اثنتين:

أولاهما: أنّ القرآن لم يكن من صنع محمَّد، أي لم يكن افتئاتاً منه على الله عزّ وجلّ.

---

[1] - النّبأ العظيم للدّكتور محمَّد عبد الله دراز ص ١٧.

الحقيقة الثانية: أنّ محمَّداً عليه الصّلاة والسّلام كان مثال الرّجل الأمين على وحي الله، فلم يكن ليزيد عليه شيئاً ولم يكن لينقص منه شيئاً، ولو أنّ ضرورة ما كان لها أن تلجئه إلى ذلك، لكانت هذه الضّرورة الخانقة في مقدّمة الضّرورات التي تدفعه إلى ذلك. ولكنّه آثر الصّبر على ذلك الضيّق الخانق فعلاً، خلال كل تلك الفترة، على أن يتورّط في اختلاق شيءٍ على الله. وإنّ لنا من صبره ذاك دليلاً على أنّ الوحي لو استمرّ ساكتاً عن بيان الحقيقة في هذه المسألة، لا ستمرّ رسول الله صابراً، ولما عالج الأمر إلاّ من خلال نوازعه وأفكاره البشريّة، دون أن يتقوّل على وحي الله بشيء.

إذن فهذا القرار القائل: ﴿ إنّ الّذين جاؤوا بالإفك عصبةٌ منكم. لا تحسبوه شراً لكم، بل هو خيرٌ لكم، لكلّ امرئ منهم ما اكتسب من الإثم. والذي تولّى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ هو قرار الله وكلامه لا يتضمن شائبة أي تدخل بشري من محمَّد أو غيره في معناه أو صياغته. ومعاذ الله أن يكون في كلامه عزّ وجلّ أي خلف أو مَين..وذلك بعد أن وضح بيقين أنّه كلام الله.

وانظر إلى الدّقة البلاغيّة التي بلغت منتهاها في الكشف عن بطلان هذه التّهمة وبيان أنّ مروّجها الأوّل عالم ببطلانها، متأكّد أنّه موغل فيما أخبر وروّج بافتئات لا أصل له.

فلقد جاءت شهادة الله ببطلان هذه التّهمة وأنّها مختلقة من أصلها، خلال الجملة الأولى من هذا البيان الإلهي. فأنت تقف على شهادة الافتراء والاختلاق، من الله عزّ وجلّ في حقّ من روّج هذه المقالة، قبل أن تنتهي من قراءة الجملة الأولى، وقبل أن تُختَتَمَ بالخبر الّذي يعطيك تمامَ المعنى. وذلك عندما سمى مضمون هذه الشّائعة بالإِفك. والإِفكُ شرّ أنواع الكذب، وهو ما يختلقه صاحبه افتئاتاً، أي وهو موقن أنّه كاذب ومختلق له. فأنت إذا بدأت بقراءة الجملة الأولى من هذه الآيات ووصلت إلى كلمة «الإِفك» وقفت على قرار الله في حقّ هذا الأمر وعرفت أنّه كتلة مَيْن واختلاق، حتّى قبل أن تتمّم قراءتك للجملة فما وراءها.

## وَرَثَةُ ٱبْنِ سَلُول :

عرفت من هو ابن سلول... وتبيّنت ممّا ذكرناه زخم المشاعر الحاقدة التي دفعته إلى سلسلة من التصرّفات، كانت هذه أهمّها وأخطرها.. ولم تكن مشاعره وأغراضه الكامنة وراءها لتخفى على أحد من أهل المدينة قط، حتّى إنَّ صحبه الّذين كانوا على شاكلته انفضَّ أكثرهم من حوله واتّبعوا سبيلاً غير سبيله.

والسّؤال الّذي لا يخفى جوابه على أيّ عاقل، هو: أفكان ابن سلول هو أوّل وآخر من احتمل تلك الأحقاد واستبطن تلك الأغراض؟

وإذا كان ابن سلول، وقد رأى رسول الله، وتبيّن دلائل نبوّته وصدقه، وأعلن إسلامه في الظّاهر - عاش لأحقاده تلك وساير أغراضه، فاصطنع هذا الإفك ومشى به بين النّاس، فما ظنّك بمن عاش يجترّ في هذا العصر عصبية صليبيّة معتّقة في دنان القرون المتطاولة، أو أحقاداً صهيونيّة استشرت وطال عليها الأمد، من حملة الأقلام الغربيّة الإستعماريّة أو الشّرقيّة الماركسيّة[1]، عندما يصله ميراث ابن سلول هذا ؟!...

إنّ غرض ابن سلول ذاك، لهو بعينه غرض كلّ عابث أو متشبّث بحديث الإفك إلى يومنا هذا... فانظر إلى الغرض الّذي كان يضمره ابن سلول، وقد افتضح به ولم يعد يخفى على أحد ممّن حوله، واعلم أنّه هو ذاته الغرض الّذي يضمره ورثة ابن سلول في هذا العصر.

وإنّ المنطق الحرّ، لَيُنْهِي اللجج في هذا الأمر بكلمتين اثنتين:

---

[1] - قد يكون الوجه السّياسي للمذهب الماركسي انمحى أو اختفى..غير أنّ الوجه الفلسفي له لا يزال نابضاً بالحياة، وللغرب دور وأيّ دور في إسعافه وإنعاشه.

هل القرآن من صنع محمَّد ومَظهر افتئات منه على الله، إذن فليكن ابن سلول في كلّ ما قد قصده ورمى إليه على حقّ، وليكن محمَّد - على الرّغم من كلّ ما تبدّى من دلائل الصِّدق والأَمانة في كيانه - هو المفتري والمختلق فيما واجه به النّاس.

أم هل هو كلام الله المنزل على محمَّد، وليس لمحمَّد فيه إلاّ دور النّقل بكلّ تجرّد وأمانة. إذن فعائشة مبرّأة ممّا ألصق بها بشهادة من الله عزّ وجلّ، وابن سلول موغل في الإِفك والافتئات على الله، قبل أيّ شيء سواه.

وهيهات أن تجد إنساناً صادقاً في دعوى إيمانه بالله وكتابه ورسوله، ثم يناله رشاش ريب من هذا الّذي أقدم عليه ابن سلول... وهيهات أن تجد إنساناً يُلْحِق أياً من موجبات الرّيبة بعائشة، بعد وقوفه على كلّ ما قد تمّ بيانه، ثم تكون لديه ذرّة من التّصديق بأنّ الّذي يقول ﴿ إنَّ الّذين جاؤوا بالإِفك عصبةٌ منكم... ﴾ هو الله !...

## عَائِشَةُ وَعَلِيٌّ بَعْدَ حَدِيثِ ٱلْإِفْك:

لم أجد فيما كتبه - قديماً - المؤرّخون الثّقات وعلماء التّراجم ورجال الجرح والتّعديل، أيّ زعم بأنّ موقف علي أيّام حديث الإفك وحديثه لرسول الله ﷺ في ذلك، أورث قلب

عائشة بعض الضّغينة عليه، وأنّ هذه الضّغينـة استمرّت في قلبهـا حتّى يوم الوفاة.

حتّى إذا التفتنـا، نصغـي، إلى مـا يقـرّره ويدبجـه الكتّـاب الجـدد، هؤلاء الّذين يطيب لهم أن يتبعوا المذهب الذّاتي في كتابـة التّاريخ وتحليل أحداثه وشـخصيّاته، وهـو المذهـب الّـذي ابتدعـه فرويد، ثم راح ينسج على منوالـه المعجبـون بـه أو الواجـدون في طريقته ما يحقّق لهـم غايـةً في استنطاق أحـداث التّـاريخ، بمـا قـد يروق لهم ويتّفق مع أهوائهم، ويخدم أغراضهم- أقـول: حتّـى إذا التفتنا نصغي إلى هؤلاء... رأينا أنفسنا أمام تحليل جديـد لا عهـد لنا به فيما قد كتبه القدماء من المحقّقين والمؤرّخين، والمعنيّين بهـذا الأمر أكثر من غيرهم، وهم رجال الجرح والتّعديل.

وإنّي لأعلم أنّ هذه الطّريقة الذاتيّة الحديثة في تحليـل أحـداث التاريخ، وتحليل نفسيّات رجاله وأبطالـه، فـنّ جديـد يتطـرّف بـه بعض الكـاتبين، طمعـاً في أن يُوصَفُـوا بمهـارة في تحليـل النّفـوس، والوصول إلى ما وراء الأحداث؛ ويمتطيه آخرون لبلوغ مـآربهم، من دسيسة ينفثونها أو أكذوبة يغرسونها، أو حقيقة يزيّفونها.

بعـض هـؤلاء الكـاتبين – ولا أدري مـن أيّ الفريقـين هـو- كتب عن عليّ يقول:

((لقد وقـف منهـا علي – مع علمه ببراءتها – موقفاً غاية في

القسوة. أفصح أبلغ إفصاح عمّا في نفسه نحوها من تأثر. وإنّ مع عائشة الحقّ كلّ الحقّ في أن لا تنسى تلك البادرة التي كادت تعصف بروحها عصفاً، لولا أن لَطَفَ الله بنبيّه وبها، فأنزل عليه براءتها تتلى في القرآن حتّى يوم النّاس هذا)) [1].

والموقف الذي يعنيه الكاتب، هو قول عليّ لرسول الله عندما استشار بعض أصحابه في الأمر وفي فراق أهله: ((لم يضيّق الله عليك والنّساء كثير، واسأل الجارية تصدقك )).

ونحن إن أردنا أن نجنح إلى الطّريقة الذاتيّة في قراءة النفوس ووضع اليد على ما وراء الأحداث، لدراسة موقف عليّ هذا، وتتبّع آثاره في نفس عائشة، لا نجد - والحق يقال- في كلام عليّ هذا أيّ إفصاح عن تهمة أو أيّ تعبير عن غيظ، كما لا نجد في موقف عائشة منه أيّ دلالة على أسى أو حقدٍ طاف بنفسها أو هيمن على قلبها تجاهه.

إنّ رسول الله لم يستشر أولئك النّاس من أصحابه في أمر عائشة ليقولوا له أمتورّطة هي فيما اتّهمت به أم لا. ذلك لأنّه

---

[1] - قد يكون من الخير أن نغفل اسم الكتاب ومؤلّفه، والمظنون أن يكون قد رجع عن هذا التصوّر، وإنّ له من الفضائل والمزايا ما يؤهّله للإقلاع عن هذا الوهم والرّجوع إلى الحق.

أدرى بخلق أهله وما هي عليه من استقامة وخير، منهم جميعاً. ولأنّه لا يعقل أن يستجرهم إلى النّطق بتهمة ليس له ولا لهم أيّ حقّ شرعي في النّطق بها، ولو نطق أحدهم بها لاستحقّ الحدّ الّذي ناله حسّان وصحبه، فكيف يعقل أن يستجرهم إلى ما يجعله يقيم عليهم الحدّ من أجله؟

وإنّما استشارهم النبيّ ﷺ، في المَخْلَص من الحيرة التي انتابته أمام أَذِيَّة هذا الرّجل الّذي أشاع قالة السّوء عن أهله، فبلغ بأذاه إلى أخصّ شؤونه، كما قال في سؤاله الّذي وجّهه على المنبر للنّاس جميعاً.... فهو يسأل عن المَخْلَصِ من الألم الّذي انتابه، من جراء هذه التّهمة الظّالمة التي جرحته أبلغ جرح من خلال قالة السّوء التي ألصقت بأهله.

ولقد فهم عليّ رضي الله عنه معنى سؤال رسول الله هذا أبلغ فهم. فكان طبيعياً أن يجيبه – من منطلق الألم له والغيرة عليه– بذلك الجواب. وهو كلام لا يشير بأصبع أيّ اتّهام إلى عائشة، وإنّما يهيب برسول الله أن لا يذيب نفسه ألماً من هذا الحديث، بقطع النّظر عن صدقه أو كذبه. وإذا كانت الصّلة الزّوجيّة بها هي مصدر آلامه واضطرابه، فإنّ النّساء كثير وله في غيرها غنى.

وإنّي لعلى يقين بأنّ عائشة لم تفهم من كلام عليّ إلاّ هذا المعنى، ولم تشمّ ممّا في نفسه إلاّ هذا القصد. يدلّ على ذلك

أنّ كلّ ما كانت تعاني منه نفسها من كرب وضيق، زايلها وانجاب عنها، عندما نزل الوحي الإلهي يعلن براءتها ممّا سمّاه الله: الإفك. فلم يشهد أحد ولم يسمع أنّها رضي الله عنها، عاتبت في هذا الأمر عليّاً أو أغلظت له مرّة في قول، أو غمزت من جانبه بمناسبة.

أمّا وقعة الجمل التي أعقبت مقتل عثمان. فلا شأن لها بهذا الّذي نحن بصدده قط. وسيأتي الحديث عنها في حينه إن شاء الله.

ثمّ إنّا نسأل، كما سأل الأستاذ عبد الحميد طهماز في كتابه «السيّدة عائشة»: أيّهما أحرى بالتّأثير في نفس عائشة، كلام حسّان بن ثابت الّذي استوجب من أجله الحدّ، أم كلام عليّ، وهو كما رأينا لا ينطوي على شائبة اتّهام؟

ومع ذلك «فإنّ السيِّدة لم تحقد على حسّان، وحملتها أخلاقها الرّفيعة أن تقف منه موقف المتسامح، حتّى كانت تنهى عن سبه والإساءة إليه وتحترمه. ففي صحيح البخاري عن عروة أنّه قال: ذهبتُ أسبّ حسّان عند عائشة. فقالت: لا تسبّه فإنّه كان ينافح عن رسول الله ﷺ، وأخرج عبد الرزّاق عن معمر عن قتادة قال: كانت عائشة تقول: لا تقولوا لحسّان إلاّ خيراً، فإنّه يهاجي عن النبيّ ﷺ ويهجو المشركين. قال:

وكان حسّان إذا دخل على عائشة ألقت له وسادة فجلس عليها. أفيعقل أن تقدر السيّدة موقف حسّان من النبيّ ﷺ، فتغضي عن إساءته البالغة لها، ولا تقدّر مواقف عليّ رضي الله عنه من النبيّ، وبلاءَهُ وجهادَهُ في سبيل الإسلام ))[1].

وأقول: هذا لو تكافأ الموقفان، فكيف وإن عليا لم ينطق بأيّ تهمة، ولم يُعْنَ إلاّ بما قد يخفّف من وقع المصاب على نفس رسول الله ﷺ؟

ولقد بحثنا ونقّبنا، فلم نعثر على أيّ موقف أو كلمة تشير إلى أنّ عائشة كانت تحمل في نفسها أيّ حفيظة على عليّ بسبب مقالته تلك، بل رأينا أنّ جلّ الأَحاديث التي تتضمّن مزايا علي وفاطمة هي من رواية عائشة.

فلقد ثبت أنّها سئلت: أيّ النّاس كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ؟ قالت: فاطمة، فقيل: من الرّجال؟ قالت: زوجها. إنْ كان ما علمت صوّاماً قوّاماً[2].

وهي الّتي روت حديث فضل أهل البيت الّذي يعتبر من أعظم مناقب علي رضي الله عنه. قالت: خرج النبيّ ﷺ غداةً وعليه

---

[1] – السيّدة عائشة لعبد الحميد طهماز: ص ١٤٥.

[2] – رواه الترمذي.

مرط مرحّل من شعر أسود. فجاء الحسن بن عليّ فأدخله، ثمّ جاء الحسين فدخل معه، ثمّ جاءت فاطمة فأدخلها، ثمّ جاء علي فأدخله. ثمّ قال: (( إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجس أهل البيت ويطهِّركم تطهيراً ))[1] .

## الحَاقِدُونَ وَتَأوِيلُهُمُ البَاطِل :

غير أنّ الّذي هو شرّ من دسيسة ذوي العصبيّة الصليبيّة أو الأحقاد الصّهيونيّة، ذلك التّأويل السّمج الباطل الذي يبرأ منه المنطق وتتأباه القواعد العربيّة، والّذي جنح إليه الحاقدون على أزواج رسول الله من حيث أوهموا النّاس حبّهم لآل بيته !...

فقد قال قائلهم: ( إنّ أظهر ما في الآيات العشر دلالة على براءة عائشة، قوله تعالى: ﴿ لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء، فإذا لم يأتوا بالشّهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ فقد استدلّ فيها على كذبهم بعدم إتيانهم بالشّهداء. ومن الواضح أنّ عدم إقامة الشّهادة إنّما هو دليل البراءة الظّاهريّة، أعني الحكم

---

[1] – رواه مسلم. وانظر (( السيّدة عائشة )) لعبد الحميد طهماز: ١١٩.

الشّرعي بالبراءة، دون البراءة الواقعيّة، لوضوح عدم الملازمة)!.[1].

أقول: إنّ أيّ عاقل انجابت عنه غاشية الحقد على أزواج رسول الله وآل بيته المطهّرين، لابدّ أن يسأل عندما يسمع هذه الدّسيسة السّاقطة: أفكان الهمُّ الّذي يؤرق نفس رسول الله ويشغل باله، جهلَهُ بالبراءة الشّرعيّة الظّاهرة التي تنجي زوجته من عقاب الحدّ، بقطع النّظر عن واقعها الخفي من وراء ذلك، ومن ثمّ فإنّ تلك (البراءة الشّرعيّة) هي التي أزالت الكرب عن نفسه وأعادت إليه أسارير وجهه ورضاه عن زوجه؟!..

لو كان الأمر كذلك ( وهذا مالا يقبله عقل أي عاقل ) لما وجد الكرب أو الغمّ سبيلاً إلى نفسه من أوّل الأمر، إذ كان يعلم، قبل نزول آيات التّبرئة، ( بمقتضى حكم القذف الّذي كان قد نزل من قبل ) أنّ عائشة ليست معرّضة لأيّ عقاب، إذ إنّ أحداً لم يشهد عليها بالفاحشة، فضلاً عن اجتماع أربعة شهود.

إنّ الهمّ الّذي كان قد استبدّ به، كما هو ظاهر لكلّ أحد، هو خوفه من أن تكون القالة التي انتشرت بين أناس في المدينة

---

[1] – الميزان في تفسير القرآن للسيّد محمّد حسين الطباطبائي: ج ١٥ ص ١٠٢. ط لبنان.

صحيحة في واقع الأمر، بقطع النّظر عن وجود أو عدم وجود شهود، أي بقطع النّظر عن ثبوت (البراءة الشّرعيّة).

فلمّا انجابت عنه غاشية الهمّ، وعاد فتهلّل وجهه سروراً، بنزول الآيات التي جرّمت تلك العصبة بجريمة الإفك والافتئات، وبرّأت عائشة من قالة السّوء تلك، كان ذلك دليلاً قاطعاً على أنّ تلك الآيات تعني كلاً من التّبرئة الحقيقيّة والشّرعيّة معاً... تعني التّبرئة الأولى، بياناً للحقّ، وإدخالاً للسّرور على قلب رسول الله، وتأكيداً لسموّ عائشة عن الإفك الّذي حاولت تلك العصبة إلحاقه بها... وتعني التّبرئة الثّانية تأكيداً لحكم شرعي وتأديباً للمتقوّلين والمفترين.

انظر إلى أوّل جملة في هذه الآيات العشر، تجد كيف أنّها لم تسمّ القالة التي روّجتها تلك العصبة، إلاّ باسم واحد، هو الإفك. والإفك شرّ أنواع الكذب. ولا يسمّى صاحبه مؤتفكاً إلاّ عندما يعلم في نفسه أنه كاذب فيما يقول. وإنّها لشهادة إلهيّة كبرى ببراءة عائشة براءة واقعيّة حقيقيّة ممّا نسب إليها، من حيث هي شهادة في الوقت ذاته بإفك المتقوّلين.

أما ذاك الّذي يشهد على حادثة زناً رآها، فتردّ شهادته لأنّها لم تدعم بشهادة ثلاثة آخرين، فلا يعدّ كاذباً ولا يؤخذ بجريرة

الكذب أصلاً، لأنّه صادق فيما أخبر وشهد، على افتراض أنه عادل... وإنّما يحدّ مع ذلك حدّ القذف لأنّه كشف ستراً أمر الله بالإبقاء عليه. وتلك هي البراءة الشّرعيّة التي ينالها من ارتكب فاحشة فستره الله.

فانظر إلى هؤلاء المتخرّصين كيف يتلاعبون بكلام الله ليخضعوه لأحقادهم وما تهواه نفوسهم. وإنّ أوّل جملة في هذا الكلام الربانيّ المبين، وهي تلك التي وصفت قالة العصبة بالإفك، لتمزّق هذا التّأويل العابث المتأفّك.

وما قرأت دفاعاً عن إفك عبد الله بن أبي بن سلول، ونيلاً من الحقّ الّذي يقرّره كتاب الله، بأسلوب فاضح يصطنع التستّر والتخفّي، كهذا الكلام المتهافت العجيب الذي قرأته !!...

إنّه يدافع عن ابن سلول وعصبته، فيما أشاع وتقوّل، نظراً إلى أنّ الرّجل إنّما نفى البراءة (الواقعيّة) على حدّ تعبيره عن عائشة ولم ينفِ البراءة الشّرعيّة التي هي محلّ البحث... ولما لم يكن بين البراءتين تلازم كما يقول، فإنّ من حق ابن سلول أن يتهمها ويسلب عنها البراءة عن السّوء من حيث الواقع، وأن يترك لها فقط البراءة التي تتستّر بها من حيث الشرع... ومن ثمّ فإنّ وصف القرآن لابن سلول وعصبته بالكاذبين غير وارد!!..

يبقى أنّه كان على رسول الله أن يفهم هذا الّذي غاب عنه و لم يتنبَّه إليه، وعندئذٍ كان يستسلم لمزيد من الكرب والأسى، ويستقبل مزيداً من الريبة القاتلة، تجاه زوجته التي بُرِّأت شرعاً و لم تبرأ واقعاً وحقيقة!!...

وهذا لا يكلّفه ﷺ أكثر من أن لايعبأ بكلام الله القائل ﴿ إنّ الّذين جاؤوا بالإفك... ﴾ ولا يقيم له وزناً، من حيث يكلفه أن يذعن بالتّقدير والتّصديق لكلام ابن سلول الّذي برّأ عائشة شرعاً و لم يبرّئها واقعاً!...

ترى هل يبلغ شاخت، وغولدزيهر، وبرناردلويس، أن يكونوا تلامذة، في مدرسة الافتراءات السّاقطة، لهذا المتقوّل على الله ورسوله وعلى منطق الأشياء، بهذا الكلام؟!...

# المَكَانَةُ العِلْمِيَّةُ لِعَائِشَةَ

ممّا لانعلم خلافاً فيه بين المؤرّخين والمترجمين، أنّ الصّحابة رضوان الله عليهم كانوا إذا أشكل عليهم الأمر في الدّين، ثم لم يهتدوا فيه إلى مخرج، رجعوا فيه إلى عائشة، ليجدوا عندها ما قد فاتهم من العلم به.

روى الزّركشي في كتاب الإجابة عن أبي موسى الأشعري أنّه قال: ما أشكل علينا - أصحابَ رسول الله ﷺ - حديث قط، فسألنا عائشة إلاّ وجدنا عندها منه علماً.

وروى ابن حجر في كتاب، الإصابة، عن مسروق - وهو من جِلّة التّابعين - قال: رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر، يسألون عائشة عن الفرائض. وروى عن عطاء بن أبي رباح قوله: كانت عائشة أفقه النّاس وأعلم النّاس وأحسن النّاس رأياً في العامة. وقال هشام بن عروة يروي عن أبيه: ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطبّ ولا بشعر من عائشة..... وقال الزّهري: لو جمع علم عائشة إلى علم

جميع أمّهات المؤمنين وعلم جميع النّساء، لكان علم عائشة أفضل[1].

وقد ألّف الزّركشي كتاباً سماه: الإجابة فيما استدركته عائشة على الصّحابة، جمع فيه طائفة من تصحيحات السيّدة عائشة لفهوم أو رواياتٍ كان قد اعتمدها بعض الصّحابة... وعلى الرّغم من أنّ كثيراً ممّا نقله الزّركشي في ذلك لا يصحّ من حيث السّند، إلاّ أنّ تصحيحات السيّدة عائشة لبعض الصّحابة، في النّقل والرّواية غالباً،وفي الفهم والتّفسير أحياناً، لا تنكر. وربّما كان ذلك من قبيل الاختلاف في الرّأي والاجتهاد، أي فلا يشترط أن يتحوّل الصّحابي الّذي استدركت عليه إلى رأيها الّذي تراه. وإن كانت مخالفة الصّحابة لها في أمر الرّواية وتصحيحها نادراً جدّاً.

فمن الاستدراكات التي سجّلت مذهباً لعائشة خالفت فيه كثيراً من الصّحابة، وفي مقدّمتهم عبد الله بن عبّاس، مسألة رؤية رسول الله ﷺ ربّه ليلة المعراج. روى البخاري وغيره عن مسروق قال: قلت لعائشة: ياأمّاه هل رأى محمّد ﷺ ربّه ؟

---

[1] - انظر الإصابة للحافظ ابن حجر: ٣٤٩/٤ والاستيعاب لابن عبد البرّ مع الإصابة/٣٤٨/٤.

فقالت: لقد قفّ شعري ممّا قلت. أين أنت من ثلاث، من حدثكهن فقد كذب : من حدّثك أنّ محمّداً ﷺ رأى ربّه فقد كذب، ثم قرأت قوله تعالى: ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير﴾ الأنعام: (١٠٣). ﴿ وما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب ﴾ الشورى: (٥١)

ومن حدّثك أنّه يعلم مافي غدٍ فقد كذب. ثمّ قرأت قوله تعالى: ﴿ وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً ﴾ لقمان: (٣٤)

ومن حدّثك أنّه كتم فقد كذب، وقرأت قوله تعالى :﴿ يا أيّها الرّسول بلّغ ما أنزل إليك ﴾ المائدة : (٦٧) ولكن رأى جبريلَ عليه السّلام في صورته مرّتين[1].

ومن ذلك مارواه الشّيخان أنّ زياد بن أبي سفيان كتب إلى عائشة، أنّ عبد الله بن عبّاس قال: من أهدى هدياً حرم عليه ما يحرم على الحاج حتّى ينحر هديه. وقد بعثت بهديي فاكتبي لي بأمرك.

فأرسلت إليه تقول : ليس كما قال ابن عبّاس. أنا فتلتُ قلائد هدي رسول الله ﷺ، بيدي، ثمّ قلدها رسول الله بيده، ثمّ بعث بها مع أبي، فلم يحرَّم على رسول الله ﷺ شيء أحلّه

---

[1] - البخاري في كتاب التّوحيد.

الله حتّى نحر الهدي[1].

ومن ذلك رجوع أبي هريرة عمّا كان يرويه عن الفضل بن عبّاس، أنّ من أدركه الفجر وهو جنب، فلا يصم. فلمّا سئلت عائشة وأمّ سلمة، قالتا: كان النبيّ ﷺ يصبح جنباً من غير حلم، ثمّ يصوم. ولمّا أُخْبِرَ أبو هريرة بذلك قال: هما أعلم، ثمّ أقلع عمّا كان يقول في ذلك.[2]

ومن ذلك ما استدركته على عبد الله بن عمر عندما بلغها أنّه يقول: إنّ الميت ليعذب ببكاء الحيّ، أو ببكاء أهله – وهو حديث رواه الشيخان البخاري ومسلم – فقالت: يغفر الله لأبي عبد الرّحمن، أما إنّه لم يكذب، ولكنّه نسي أو أخطأ، إنّما مرّ رسول الله على يهودية، فذكرت الحديث، أي فكانت الباكية يهودية تبكي على قريب يهودي مات لها، وإنّما كان كلام رسول الله عن ذلك الميت بخصوصه إشارة منه ﷺ إلى أنّ بكاء قريبها لا يفيده بعد أن رحل إلى الله كافراً. بل إنّ بكاءها عليه يزيده ندامة وأسى. واستشهدت في ردّ تعميم معنى الحديث بقول الله عزّ وجلّ:﴿ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى﴾.

---

(1) – الحديث متفق عليه.

(2) – رواه مسلم في صحيحه.

أقول:وللعلماء كلام طويل وخلافات كثيرة في بيان المعنى المراد من قول رسول الله ﷺ هذا : إنّ الميت ليعذّب ببكاء أهله عليه، وفي بعض روايات البخاري : (( ببعض بكاء أهله عليه )) وذلك بعد أن استشكلت عائشة فهم هذا الحديث على عمومه أو إطلاقه، مع قول الله عزّ وجلّ:﴿ولا تزر وازرةٌ وِزرَ أُخرى﴾.

ولعلّ أقرب المعاني وأكثرها توفيقاً بين الحديث والآية القرآنية، أن تحمل كلمة (( يُعَذَّبُ )) في الحديث على شعور الميت بالألم الذّاتي، بسبب علمه ببكاء أهله عليه، لا على تعذيب الملائكة له، كما قد توهم العبارة. أي إنّ الميت يضيق ذرعاً بما يعلم من بكاء أهله عليه، لا سيما إن صاحبه نواح وعويل ونحو ذلك، ويتمنّى لو لم يفعلوا ذلك[1].

وربما اختلف الصّحابة فيما بينهم في فهم معنى حديثٍ أو في روايته، فجاؤوا يحتكمون في ذلك إلى عائشة. ولم يكونوا يصدرون عن رأيها أو قرارها في الأمر، إلاّ راضين متّفقين.

---

[1] -رواه مسلم والبخاري في الجنائز، وانظر ماذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري حول هذا الحديث وموقف عائشة من معناه وخلاف العلماء في المعنى المراد به.

من ذلك مارواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة يقول: من اتبع جنازة فله قيراط (أي من الأجر) قال ابن عمر معلّقاً: أكثَرَ أبو هريرة علينا (تعبير عن بعض الرّيبة فيما قال) فبعث عمر إلى عائشة يسألها عن قوله فصدّقت أبا هريرة، وقالت سمعت رسول الله يقوله. فقال ابن عمر: لقد فرّطنا في قراريط كثيرة.[1]

وروى الإمام أحمد في مسنده أنّ رجلين دخلا على عائشة فقالا: إنّ أبا هريرة يحدّث أنّ نبيّ الله ﷺ كان يقول: «إنّما الطِّيَرةُ في المرأة والدابّة والدّار» فطارت شقة منها في السّماء وشقّة منها في الأرض- أي أخذ منها الغضب مأخذاً كبيراً - وقالت: والّذي أنزل القرآن على أبي القاسم ما هكذا كان يقول. ولكن كان نبيّ الله ﷺ يقول: «كان أهل الجاهلّية يقولون: الطِّيَرَةُ في المرأة والدّابة والدّار» ثمّ قرأت قول الله تعالى: ﴿ ما أصاب من مصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم إلاّ في كتابٍ من قبل أن نبرأها ﴾[2].

---

[1] رواه البخاري ومسلم في كتاب الجنائز.

[2] رواه الإمام أحمد في مسنده. ولا ينافي كلام عائشة هذا مارواه الشّيخان من حديث عبد الله بن عمر وغيره، «.. إن كان الشّؤم في شيء ←

وذكرت في بعض ماروي عنها: لم يحفظ أبو هريرة، فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوّله.

وروى أحمد في مسنده، والحاكم في مستدركه من حديث هشام ابن عروة قال: كان عروة يقول لعائشة: ياأُمّتاه، لا أعجب من فهمّك، أقول: زوجة رسول الله وبنت أبي بكر. ولا أعجب من علمك بالشّعر وأيام النّاس، أقول: إبنة أبي بكر، وكان أعلم النّاس أو من أعلم النّاس. ولكن أعجب من علمك بالطبّ، كيف هو ومن أين هو؟ قال: فضربت على منكبه وقالت: أي عُرَيَّة، إنّ رسول الله ﷺ كان يسقم عند آخر عمره، أو في آخر عمره، فكانت تقدم عليه وفود العرب من كلّ

---

← ففي الدّار والمرأة والفرس )) ذلك لأنّ الشّؤم يختلف عن التطيّر. فالتطيّر إلصاق السّوء ببعض الأشياء من حيث ذاتها، أمّا الشّؤم الكامن في الشّيء، فهو كالآفة، والمراد به سوء العاقبة. وسوء العاقبة هنا ليس صادراً من ذات الشّيء أي ذات الدّار والفرس والمرأة، وإنّما من صفات عارضة قد يقترن كل منها بها. قالوا: فلمّا أبطل رسول الله مذهب العرب في التطيّر بالسوانح والبوارح من الطّير والظّباء ونحوها، قال: فإن كانت لأحدكم دار يكره سكناها أو امرأة يكره صحبتها أو فرس يكره ارتباطها، فليفارقها بأن ينتقل عن الدّار ويطلق المرأة ويبيع الفرس. (انظر النّهاية في غريب الحديث: ٢/٢٤١ ولسان العرب مادّة: شؤم).

وجـه فتنعت له الأنعات وكنت أعالجها له، فمن ثمَّ.[1]

ورَوى الحاكم في المستدرك عن الزّهـري قـال: لـو جمـع علـم النّاس كلهم، ثـم علـم أزواج النبيّ صلّـى الله عليـه وآلـه وسلّم، لكانت عائشةُ أوسعهم علماً.[2]

وصفوة القول عن علم السيّدة عائشة تتمثّل في السّطور التّالية التي كتبها الأستاذ سـعيد الأفغـاني في مقدّمتـه لكتـاب «الإجابـة فيما استدركته عائشة على الصّحابة» للزّركشي. قال:

«سلختُ سنين في دراسة السيّدة عائشة، كنـت فيهـا حيـال معجزة لا يجد القلم إلى وصفها سـبيلاً. وأخـصّ مـا يبهـرك فيهـا علـم زاخـر كـالبحر بُعْـدَ غـور، وتلاطُـمَ أمـواج، وسـعَةَ آفـاق، واختلافَ أَلوان. فما شئت إذ ذاك من تمكُّنٍ في فقـه أو حديـث أو تفسير أو علم بشـريعة أو آداب أو شـعر أو أخبـار أو أنسـاب أو مفـاخر أو طـب أو تـاريخ.. إلاّ أنـت واجـد منـه مـايروعك، عند هذه السيّدة. ولن تقضي عجباً من اضطلاعها بكـلّ أولئـك، وهي لا تتجاوز الثّامنة عشرة».[3]

---

[1] – مسند أحمد: ٦/٧٦ والمستدرك: ٤/١١.

[2] – المستدرك: ٤/١١.

[3] – مقدمة الإجابة: ص ٣.

## حَظُّهَا مِنَ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَيَان:

أجمع الّذين ترجموا لعائشة وكتبوا عن حياتها، أنّها كانت أفصح نساء العرب في عصرها لساناً.

روى التّرمذي عن موسى بن طلحة قال: ما رأيت أحداً أفصح من عائشة. وروى محمَّد بن سيرين عن الأحنف بن قيس قال: سمعت خطبة أبي بكر الصدّيق، وعمر بن الخطّاب، وعثمان بن عفّان، وعليّ ابن أبي طالب والخلفاء كلّهم، هلمّ جراً إلى يومي هذا، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من في عائشة.[1]

وخيرٌ من سَرْدِ الأقوال التي قيلت عن فصاحتها وسموّ بيانها، أن نصغي إلى نماذج من ذلك في كلامها.

لـمّا توفّي أبو بكر رضي الله عنه وقفت عائشة على قبره فقالت: «نضّر الله وجهك ياأبت، وشكر لك صالح سعيك. فلقد كنت للدّنيا مُذِلاً بإدبارك عنها، وللآخرة معزّاً

---

[1] – رواه الحاكم في المستدرك. وانظر الإجابة للزّركشي ص ٥٧ بتحقيق الأستاذ سعيد لأفغاني.

بإقبالك عليها. ولئن كان أجلَّ الحوادث بعد رسول الله رُزْؤُكَ، وأعظمَ المصائب بعده فقدُك، إنّ كتاب الله ليَعِدُ بحسن الصّبر عنك حُسْنَ العِوَض منك. وأنا أَستَنْجِزُ موعُود الله فيك بالصّبر، وأستقْضِيه بالاستغفار لك. أمَا لئن كانوا قاموا بأمر الدّنيا، لقد قمت بأمر الدّين لمّا وَهَى شَعْبُه وتفاقم صَدْعُه، ورجفت جوانبه. فعليك سلام الله توديعَ غيرِ قالية لحياتك، ولا زارية على القضاء فيك )).[1]

ومن بليغ كلامها ماقالته لكلّ من عمران بن حصين وأبي الأسود الدّؤلي، وقد أرسلهما إليها عثمان بن حنيف يوم الجمل:

قالا لها: ياأمّ المؤمنين: أخبرينا عن مسيرك، أهو عهد عهده رسول الله أم رأي رأيتيه؟

قالت: بل رأي رأيته، حين قتل عثمان. إنّا نقمنا عليه ضربة بالسّوط، وموقع السّحابة المحماة،[2] وإمرة سعيد والوليد. فعدوتم عليه، فاستحللتم منه الحُرَمَ الثّلاث: حرمة البلد، وحرمة الخلافة، وحرمة الشّهر الحرام. بعد أن مُصناه كما يماص

---

[1] – زهر الآداب للقيرواني ١/٣٩.

[2] – تعني الأرض التي حماها عمر لرعي إبل الصّدقة .

الإناء[1] فاستنقى، فركبتم منه هذه ظالمين، فغضبنا لكم من سوط عثمان، أفلا نغضب لعثمان من سيفكم؟!...[2]

ومن ذلك ماقالته يوم مقتل عثمان رضي الله عنه. قالت:

(( أقتل أمير المؤمنين؟ قالوا: نعم. قالت: رحمه الله وغفرَ له. أما والله لقد كنتم إلى تشييد الحقّ وتأييده وإعزاز الإسلام وتأكيده أحوج منكم إلى مانهضتم إليه من طاعة من خالف عليه. ولكن كلّما زادكم الله نعمة في دينكم ازددتم تثاقلاً في نصرته طمعاً في دنياكم. أما والله لَهَدْمُ النّعمة أيسر من بنائها. وما الزّيادة إليكم بالشّكر بأسرع من زوال النّعمة عنكم بالكفر )).

---

[1] -المَوْصُ: غسل الشّيء برفق، تعني أنّه كان قد عوتب على الأخطاء التي اجتهد فيها وتحوّل عنها حتّى خرج نقيّاً منها، كالإناء الذي يستنقى بعد غسله، فلمّا أعطاكم ما طلبتموه عدوتم عليه فقتلتموه.

[2] -البيان والتبين للجاحظ: ٢/٣٣٢ والبداية والنّهاية لابن كثير: ٧/٢٣٢.

# عَائِشَــةُ وَالْمَــرْأَةُ :

كانت عائشة - كما اتّفق الكتّاب والمؤرّخون - موئل المستضعفات من النّساء، وكنّ يلتجئن إليها في رعاية حقوقهن والدّفاع عنهن. وربّما هابت المرأة أو الفتاة رسول الله أن تعرض شكواها عليه، فتأتي إلى عائشة، وتشكو أمرها إليها، فتتوسّط لها إلى رسول الله، أو تشجّعها لعرض شكواها عليه مباشرة.

روى النّسائي عن عائشة أنّ فتاة دخلت عليها، فقالت: إنّ أبي زوّجني من ابن أخيه يرفع بي خسيسته، وأنا كارهة. فقالت عائشة: إجلسي حتّى يأتي رسول الله. فجاء رسول الله ﷺ، فأخبرته. فأرسل إلى أبيها فدعاه، فجعل رسول الله الأمر إليها. فقالت: يارسول الله، قد أجزت ما صنع والدي، ولكن أردت أن أُعْلِمَ النِّساء أن ليس للآباء من الأمر شيء.

وكان في الرّجال من يصرّ على أن يضارَّ زوجته: يطلّقها، حتّى إذا أوشكت عدّتها أن تنقضي راجعها، ثمّ عاد فطلّقها. فتكون بذلك غير متزوّجة ولا بائنة. روى التّرمذي عن عائشة

قالت: كان النّاس، والرّجل يطلّق امرأته ما شاء أن يطلّقها، وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدّة، وإن طلّقها مائة مرّة أو أكثر، حتّى قال رجل لامرأته، والله لا أطلّقك فتبيني منّي، ولا آويك أبداً. قالت: وكيف ذاك ؟ قال: أطلّقك، فكلّما همّت عدّتك أن تنقضي راجعتك.

فذهبت المرأة حتّى دخلت على عائشة فشكت ذلك إليها، فسكتت عائشة واستمهلتها حتّى يأتي رسول الله، فلمّا جاء أخبرته، فسكت النبيّ ﷺ حتّى نزل القرآن: ﴿ الطّلاق مرّتان، فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسانٍ ﴾ قالت عائشة: فاستأنف النّاس الطّلاق مستقبلاً، من كان طلّق ومن لم يطلّق.[1]

كانت، رضي الله عنها، تنكر على كلّ من ينتقص من كرامة المرأة. وقد سمعت من يروي أنّ الصّلاة لا يقطعها إلا الكلب والحمار والمرأة، فغضبت واشتدّت في النّكير عليه قائلة: قد شبّهتمونا بالحمير والكلاب؟ ثمّ قالت: كان رسول الله ﷺ يصلّي - أي في اللّيل - فتقع رجلي بين يديه أو بحذائه فيصرفها فأقبضها.[2]

---

[1] - رواه الترمذي في باب الطلاق.

[2] - الإجابة للزّركشي بتحقيق الأستاذ سعيد الأفغاني: ص١٢٥.

وروى الشّيخان أنّه لمّا ذكر عندها حديث: يقطع الصّلاة الحمار والكلب والمرأة. قالت: شبهتمونا بالحمير والكلاب!.. والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يصلّي وأنا على السّرير، وبينه وبين القبلة مضطجعة، فتبدو لي الحاجة فأكره أن أجلس وأؤذي رسول الله، فأنسلّ من عند رجليه.[1]

وقد مرّ إنكارها على أبي هريرة روايته لحديث: «إنّما الطّيرة في المرأة والدّابة والدّار» وقالت: والّذي أنزل القرآن على أبي القاسم، ما هكذا كان يقول. ولكن كان نبيّ الله ﷺ يقول: كان أهل الجاهليّة يقولون: الطّيرة في المرأة والدّابة والدّار.

ثمّ إنّها، حتّى ولو لم تنافح عن مكانة المرأة وحقوقها بهذه المواقف وأمثالها، فإنّ حياة هذه السيّدة، بَنَتْ - كما قالَ سعيد الأفغاني - مجداً باذخاً لتاريخ المرأة العلمي في الإسلام. بل إنّ عبقريّتها وحدها كفيلة بملء تاريخ كامل. فلسنا نعلم في عبقريّات الرّجال والنّساء في تواريخ الأمم ما يداني مكانة السيّدة.

---

[1] - ذكره البخاري في باب: من قال لا يقطع الصّلاة شيء. وأخرجه مسلم من حديث عروة بألفاظ قريبة.

ولْتَعْلَمْ بعد هــذا سيداتنا، أنّ امـرأة منهـنّ في صـدر الإسـلام تتلمذ عليها مشيخة الأنصـار والمهـاجرين، مـن كـل حِـبر وعـالم وفقيه وقارئ وراوية، وعنها وحدها نُقِلَ رُبع الشَّريعة كمـا قـال الحاكم في المستدرك.[1]

---

[1] - من مقدّمة كتاب الإجابة للأستاذ سعيد الأفغاني: ص ٦.

## عِبَادَةُ عَائِشَةَ وَوَرَعُهَا وَزُهْدُهَا:

كانت عائشة كثيرة الصّيام، حتّى ليخيَّل أنّها تصوم الدّهر ولا تفطر. وكانت كثيرة الصّلاة دؤوبة على القيام لها في جوف اللّيل... وكانت كثيرة الدّعاء شديدة التضرّع في الصّلاة. إذا مرّت بآية خوف أو وعيد، وقفت تكرّرها وتدعو عندها بما يناسب المقام.

روى الحافظ أبو نعيم في الحلية عن أبي الضّحى، قال: حدّثني من سمع عائشة تقرأ في الصّلاة: ﴿ فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السّموم ﴾ فجعلت تبكي وتقول: مُنَّ عليَّ وقني عذاب السَّموم. قال: وحدّثني من سمع عائشة تقرأ في الصّلاة ﴿ وَقَرنَ في بيوتكن ﴾ فتبكي حتّى تبلّ خمارها. قال: وكانت تصوم وتصوم حتّى يذلقها السَّمُوم (أي الحرّ).[1]

وأرسل إليها ابن المنكدر مالاً في غرارتين، بلغ - فيما قالوا - ثمانين أو مائة ألف درهم. فدعت بطبق، وهي يومئذٍ صائمة، فجلست تقسم بين النّاس، فأمست وما عندها من ذلك درهم.

---

[1] - حلية الأولياء: ٢/ ٤٨ و ٤٩.

فلمّا أمست، قالت: ياجارية هلُمِّي فطوري (أي إيتيني بفطوري) فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها الجارية: أما استطعت ممّا قسمت اليوم أن تشتري لنا لحماً بدرهم نفطر عليه؟ قالت: لا تعنّفيني، لو كنتِ ذكّرتيني لفعلت.[1]

وروى عبد الرّحمن بن قاسم أنّ معاوية أهدى لعائشة ثياباً وَوَرِقاً (تحفاً فضيّة) وأشياء أخرى، فلمّا خرجت عائشة ونظرت إلى ذلك، بكت ثمّ قالت: لكن رسول الله ﷺ لم يكن يجد هذا، ثم فرّقته و لم يبقَ عندها منه شيء.

قال عبد الرّحمن بن قاسم: وأهدي إليها سِلالٌ من عنب، فقسمته. ورفعت الجارية سلّة منها دون أن تعلم بذلك عائشة. فلمّا كان اللّيل، جاءت به الجارية. فقالت عائشة: ما هذا؟ قالت: ياسيّدتي رفعته لنأكله. قالت عائشة: أفلا عنقوداً واحداً ؟.. والله لاأكلت منه شيئاً.[2]

وربّما خُيِّلَ لبعضهم أنّ هذا أصبح شأنها بعد وفاة رسول الله. غير أنّ هذا كان ديدناً لها في حياة رسول الله ﷺ أيضاً، فلم يكن يدخل عليها شيءٌ من المال إلا وتتصدّق بكلّه

---

[1] – المرجع المذكور: ٢ / ٤٧.

[2] – المرجع المذكور: ٢/٤٨.

أو جلّه، وربّما استعانت بالتصدّق بالقليل الّذي لديها، ليكرمها الله بالكثير على أعقاب ذلك. فإذا جاءها الكثير عادت فتصدّقت به هو الآخر.

تقول: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها. فأطعمتها ثلاث تمرات – وكان ذلك كلّ ما عندها – فأعطت كلّ واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها. فاستطعمتها ابنتاها، فشقّت التّمرة التي كانت تريد أنّ تأكلها بينهما. فأعجبني شأنها. فذكرت الّذي صنعت للنبيّ ﷺ فقال: (( إنّ الله قد أوجب لها بها الجنّة، أو أعتقها من النّار ))[1].

---

[1] – حلية الأولياء: ٢/٤٩.

## الغَيْرَةُ بَيْنَ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِيْن :

أولع بعض الكاتبين بالحديث عن الغيرة التي كانت تبرز بين الحين والآخر مابين أمّهات المؤمنين عامة، وما بينهن والسيّدة عائشة خاصّة، فتراهم يلتقطون ما ورد في ذلك من أخبار وأحداث، وربّما بالغوا في التصوّر والعرض، فأبرزوا من علاقات أمّهات المؤمنين، بعضهن ببعض، جبهتين أو مايشبه حزبين متنافسين!..

والّذي أراه أنّ الخوض في هذا البحث، وإبراز مظاهر الغيرة فيما بين نساء رسول الله ﷺ، أو فيما بينهن وبين عائشة بخصوصها، ليس إلاّ من قبيل تحصيل ما هو حاصل، ولفت الأنظار إلى طبيعة ذاتيّة أصيلة غرسها الله في نفوس النّساء عموماً، بقطع النّظر عن تفاوتهنّ في مدارج الفضيلة والسموّ الأخلاقي، فالحديث في ذلك والانشغال بالتقاط الأخبار والأحدوثات التي تبرز هذا الشّأن وتؤكّده، لا يعود بأيّ فائدة للباحث الّذي يكتب ويدوّن، ولا للقارئ الّذي يقرأ ليستفيد.

لا سيما إن عرفنا أو تذكّرنا بأنّ مشاعر الغيرة ومظاهرها

فيما بين النّساء، لا تغض من فضيلة تتّسم بها المرأة، ولا تنزل بسموّها الأخلاقي إلى أيّ دون، ما لم تدفع تلك المشاعر صاحبتها إلى ارتكاب سوء أو اقتراف محرم. وهيهات أن تجد بين عائشة وبقيّة أمّهات المؤمنين أي سلوك يشين أو يغمز من جانب الأخلاق السّامية التي عرفن جميعاً بها.

هذا شيء ... وثمة حقيقة أخرى، هي أنّ المكانة التي تتبوّؤها نساء رسول الله ﷺ، والتي تتطلّب منّا احترامهن وتقديرهن، وإمساك القلم واللّسان عن أيّ خوض في مجال نقدهن أو الإساءة إليهن – ليست نتيجة اتّصافهن بعصمة من الزّلل والأخطاء. فليس في النّاس كلّهم معصوم عن ذلك إلاّ الرّسل والأنبياء. وإنّما هي نتيجة إكرام رسول الله لهنّ وارتباطهنّ مع رسول الله ﷺ في بيت النبوّة، واقترانهنّ معه في أخصّ الأحوال والتقلّبات المعيشيّة. ولا شكّ أنّ ذلك دليل جازم على مزية كبيرة شرّفهن وخصّهن الله عزّ وجلّ بها... فالبحث بعد ذلك عن أخطاء أو مثالب لهن، والوقوف عندها بالتّنقيب والتّجريح أو النّقد، مظهر لمنقصة كبرى يعاني منها ذلك الباحث. وقد كان خيراً له من ذلك البحث والتّنقيب أن يعود بالتّقويم والإصلاح إلى دخيلة نفسه وواقع حاله.

بل إنّ هذا القرار المنطقي والدّيني الّذي نذكّر به، ينطبق أيضاً على الصّحابة عامّة الّذين قال عنهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في الحديث الصّحيح (( الله الله في أصحابي، لا تتّخذوهم غرضاً من بعدي، فمن أحبّهم فبحبّي أحبّهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم. ومن آذاهم فقد آذاني ))[1] فإنّ هذه الوصيّة بهم لا تعني الحكم بعصمتهم من الذّنب والخطأ، ولكنّها تعني أنّ لهم، على كلّ حال، مكانة عند الله لا يتبوّؤها من يأتي بعدهم. فاقتضى ذلك التأدّب معهم وعدم إطالة اللّسان في نقدهم وانتقاصهم.

ولو كان موجب الإمساك عن انتقاص المسلم أخاه المسلم عصمةً يتحصّن بها المسلم ضدّ حديث النّاس عنه، أو لو كان المبرر لنيل الإنسان من صاحبه، عدم عصمته من الزّلل والأخطاء - إذن، لكان للمسلمين جميعاً أن يتحوّلوا إلى فئات ينحطّ كل منها نيلاً وتجريحاً وانتقاصاً في الأخرى. ولما استقرّ لتآلف المسلمين وتحابّهم أيّ معنى على وجه الأرض.

وعلى الرّغم من هذا فإنّ الحديث النّقدي الّذي تقوم سداه ولحمته على التقاط أخطاء الآخرين والكشف عنها،

---

[1] -رواه الترمذي من حديث عبد الله بن مغفل.

بل على افتراضها و تخيّلها وتسليط الرّعونات النّفسيّة والعصبيّات الفكريّة والمذهبيّة عليها - غدا اليوم فنّاً جديداً من الكلام، يتطرّف به كثير من الكاتبين اليوم، إمّا ليلفتوا الأنظار بذلك إلى أنفسهم فيُعْرَفُوا في النّاس بعد نكارة، وإمّا إرواءً لغليل عصبيّاتهم، وإمّا إيحاءً إلى النّاس أنّهم مبرَّؤون من تلك النّقائص التي ينتقدون بها الآخرين.

أنظر إلى الأقلام الكثيرة التي تلتقط أو تختلق المثالب لعثمان، أو لخالد ابن الوليد، أو لأبي هريرة أو لمعاوية، أو لفلان أو لفلان من الصّحابة رضوان الله عليهم تُكْتَب، ثم تُنثر وتُنشر بين النّاس!.. وإنّها لجرأة وقحة ما عرفناها وما رأيناها في أقلام الكتّاب والباحثين السّابقين.

ذلك لأنّ الكتّاب والعلماء السَّابقين إنّما كانوا يتوخَّون فيما يكتبون ويبحثون، البناء والإصلاح. وقد علموا أنّ التّسلية بالتقاط مثالب السّابقين أيّاً كانوا، لا تعين على أيّ بناء أو إصلاح، بل الأرجح أنّها من أخطر الوسائل التي تجرّ إلى الإفساد والهدم.

أمّا هؤلاء الكتّاب والنّاقدون الجدد، فإنّما قصد أحدهم - كما قلنا - التنويه بنفسه وأهميته ناقداً ومتبصّراً بالأخطاء، ومحلّلاً للأوضاع الاجتماعيّة، ومكتشفاً للنّقائص والثغرات...

لا في سبيل أن يعالج واقعاً مضى دوره وأدبر زمانه واستقرّ في مخزن التّاريخ، ولكن في سبيل أن يبني لنفسه بين النّاس مجداً، لا بمناقب فاضلة يكتسبها، وإنّما بالجلوس فوق الحطام الذي لا يتجمّع إلاّ بعد الإمعان في الهدم والإفساد.

وآية هذا الّذي نقول: أنّ أحدهم يبعث سهام انتقاداته، بل هجوماته، عبر القرون، إلى أولئك الأفذاذ، دون أن يقف دقيقة واحدة أمام مرآة ذاته التي تجمعت فيها أضعاف المثالب التي يفتّش هناك عنها، ليضع نفسه في ميزان النّقد ذاته، وليعالج شيئاً من نقائصه الكثيرة، ولو بواحدة من تلك السّهام.

ونعود لنقول: إنّ عرض الأخبار التي تبرز مظاهر الغيرة بين عائشة وبقيّة أمّهات المؤمنين، لن يكسبنا علماً مفقوداً ولن ينجينا من جهالة مذمومة، ولن يرقى أو ينزل بأيٍّ ممّن يناله شيء من هذه الغيرة في مجال الفضيلة والأخلاق أو الحلال والحرام.

ذلك لأنّ هذه الغيرة طبع أنثوي غرسه الله في نفوس النّساء، وانفعال قسري لا يخضع لأيّ حكم تكليفي أو تربية توجيهيّة. فالبحث عن دلائلها في منثورات الرّوايات والأخبار، كالبحث عن دلائل إقبالهن - أي أمّهات المؤمنين - على الطّعام والشّراب، والرّاحة عند التّعب، والنّوم عند النّعاس.

# هَلْ كَانَتْ عَائِشَةُ تَقُودُ جَبْهَةَ مُعَارَضَة ؟!..

لو لم يكن بين السّماجة والظّرف تناقض بدهي حادّ، لقلنا إنّ في الكتاب اليوم من حاول أن يتظرّف، فكتب يقول: إنّ عائشة كانت تترأّس فريق معارضة في حياة رسول الله ﷺ !...

ترى أفي النّاس من قرأ أو سمع من التّاريخ أو أيّ من مصادر السيّرة أو التّراجم، أنّ عائشة كانت «مثالاً للمعارضة القويّة لرسول الله وغيره من أصحابه في كلّ مراحل حياتها ...» ؟

إنّني لم أقرأ إلى الآن ولم أسمع مثل هذا الخبر عن عائشة قط... وأعتقد أنّ غيري أيضاً لم يقرأ ولم يسمع شيئاً من هذا. حتّى الّذين طاب لهم أن يفسّروا النبوّة في شخص محمَّد ﷺ بأنّها منهج إصلاحي قاده محمَّد عليه الصّلاة والسّلام على درب النّظام الدّيمقراطي، لم نعلم إلى هذه اللّحظة أنّ فيهم من زعم بأنّ نظامه هذا كان مدعوماً بجبهة معارضة.

ولكن كاتباً صحافياً تظرّف، وكتب هذا الكلام الّذي لا علم لنا ولا لأحد من النّاس به قط. وأكّد لنا أنّ عائشة كانت أقوى عنصر معارضة في عصر النبوّة !...

وهـا هـو ذا يطلعنـا على بعـض مـن مواقفهـا السّلبيـّة المعارضة لرسول الله ﷺ.

مـن هـذه المواقـف أنّ القـرآن لـمّا نـزل يـأمر بـزواج النبيّ من زينب بنت جحش بعد تطليق زيد لها، قالت لـه عائشـة: ما أرى ربّك إلاّ يسارع في هواك!...

ومن هذه المواقف أنّ النبيّ ﷺ لـمّا حمل إلى عائشة ابنه إبراهيم من مارية القبطيّة، قالت له: ما أرى بينك وبينه شبهاً.

فما هي حقيقة هذين النّقلين ؟ وأين هـي الدّلالـة على زخـم المعارضة فيهما ؟

أولاً: لم يثبت بأيّ رواية صحيحة أو ضعيفة أنّ عائشـة قـالت لرسـول الله: (( مـا أرى ربّـك إلاّ مسـارعاً في هــواك )) بمناسـبة أمر الله إيّاه بالزّواج من مطلّقـة زيـد الـذي كـان متبنّـاه. ولـو أنّ في المفسّرين أو المحدثين أو المؤرّخين أو الفقهاء من أورد هذا الخبر بهذا الشّكل لوافقنا الكـاتب فيمـا يهـدف إليـه مـن إثبـات تعلّـق رسول الله بزوجة متبنّاه، وأنّ الله إنّما سارع بتنفيـذ هـواه عندمـا أمره بالزّواج منها.

إنّ عائشة قالت هذه الجملـة لرسـول الله، في مناسـبة أخـرى، لا دلالة فيها على ما افترضه هذا الكاتب من قريب أو بعيد.

روى البخاري ومسلم والنّسائي وأحمد بن حنبل عن عائشة رضي الله عنها أنّها كانت تغار من النّساء اللائي وهبن أنفسهن لرسول الله، أي زوجاتٍ يعقد نكاحه عليهن بدون مهر. فلمّا أنزل الله قوله: ﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنّبيّ، إن أراد النبيّ أن يستنكحها خالصةً لك من دون المؤمنين ﴾ إلى أن قال: ﴿ ترجى من تشاء منهن. وتؤوي إليك من تشاء، ومن ابتغيت ممّن عزلت فلا جناح عليك ﴾ قالت له: ما أرى ربك إلاّ يسارع في هواك.[1]

ومعلوم أنّ رسول الله لم يتزوّج واحدة من اللّواتي وهبن أنفسهن له، ولم يدخل بأيّ منهن. وكل ما في الأمر أنّ الله أباح له ذلك خاصّة وجعله راجعاً إلى إرادته، ولكنّه لم يتزوج أيّاً منهن [2]

فأين هو موقف المعارضة أو معناها من عائشة في هذا الكلام الّذي قالته له؟ وما هو الموضوع الّذي تعلّقت به المعارضة؟ رسول الله لم يتزوّج أيّاً من تلك النّساء، فما الّذي استنكرته

---

[1] - أنظر صحيح البخاري مع شرح فتح الباري ٣٧٢/٨ وصحيح مسلم ١٧٤/٤ وسنن النّسائي أوّل كتاب النّكاح.

[2] - انظر البخاري مع شرحه فتح الباري ٧٣٣/٨.

عائشة إذن من عمل رسول الله، وما الشّيء الّذي أعلنت عن معارضتها له فيما قد فعل أو شرع؟

ثمّ أين هي رائحة الاستنكار أو المعارضة في مضمون هذه الجملة أو نسقها الصّياغي: (( ما أرى ربّك إلاّ يسارع في هواك ))؟ وهل يفهم الرّجل العربيّ من هذه الجملة إلاّ إعجاب عائشة بمكانة رسول الله عند ربّه عزّ وجلّ وبعظيم محبّته له؟ وهذا ما فهمه العلماء وكتّاب السيّرة جميعاً.

بل لقد اشتهرت هذه الجملة في التّاريخ العربي على أنّها أرقّ مديح مدحت به عائشة رسول الله وعبّرت به عن شديد إعجابها بمكانته عند ربّه، حتّى إنّ في الشّعراء من دبجوها في قصائدهم التي أنشدوها في مدحه ﷺ. فهل خفيت دلالة المعارضة والنّقد فيها على الأجيال العربيّة جمعاء وعن أولئك الشّعراء أيضاً، ثمّ لم يكتشف هذه الدّلالة الكامنة فيها إلاّ كاتب صحافي كشاف في هذا العصر؟!..

* * *

أمّا قصّة الموقف الثّاني من مواقف المعارضة المزعومة التي اتّخذتها عائشة من رسول الله ﷺ، فهي أنّ الواقدي روى عن محمّد بن عبد الله عن الزّهري عن عروة عن عائشة، قالت:

لـمّا وُلد إبراهيم جاء به رسول الله إليّ، فقـال: انظـري إلى شـبهه بي. فقلت ما أرى شـبهاً. فقـال رسـول الله: ألاّ تريـن إلى بياضـه ولحمه؟ فقلت: إنّه من قُصِرَ عليه اللّقاح ابيضّ وسمن[1].

ونحن نتجاوز ضعف الحديث ودرجته، لنسأل: أين هو معنـى المعارضة لرسول الله في هذا الكلام؟ أهو في مجـرّد كـون عائـشـة اتّخذت رأيـاً آخـر في مسألة شبه إبراهيم به؟

وهل سمعْتَ أنّ أسرة رزقت مولـوداً ثـمّ لم تختلـف أعضاؤهـا في شـكله إلى أيّهـم هـو أقـرب سِمَةً وشبهاً، أهـو مخول يـنزع إلى شـبه بأخوالـه، أم هـو أقـرب شـبهاً إلى أبيـه وأعمامـه، وهل في النّـاس مـن قـال: إنّ نقاشـاً كهـذا مـن شـأنه أن يصـدع الأسرة ويمزّقها ويحيلها إلى جبهات معارضة؟ ...

أم لعلّ هذا الكاتب يريد أن نفهم مـن كـلام عائشـة مـا هـو أخطر وأعمـق مـن هـذه الـدّلالات المعروفـة المتداولـة بـين سـائر الأسـر، وفي مختلـف العصـور، ألا وهـو الطّعـن بشـرف ماريـة واتّهـامهـا بخيـانـة رسـول الله ﷺ، واعتبـار هـذا الطّفـل الّذي لا

---

[1] - طبقـات ابـن سـعد ١/١١٩. ومعنـى قصـرت عليـه اللّقـاح أي حبسـت له النّعاج ذوات اللّـبن. والحديـث تفـرد بروايتـه الواقـدي. وقـال عنـه النّـووي هو ضعيف بالاتّفاق. وقال الذّهبي: استقرّ الإجماع على وهن الواقدي وضِعفه.

يشبه رسول الله بمثابة شاهد على ذلك!!...

إن كان هذا مايرمي إليه هذا الكاتب، فهو إذن اتّهام لكلّ زوجة لم تضع مولوداً يشبه أباه أو عمومته بالقدر الّذي يشبه خؤولته، بأنّها خائنة وبأنّ المولود من سفاح. وهو أيضاً تقويل لكلّ من نظر إلى مولود ما فقال إنّه إلى خؤولته أقرب، بأنّ أمّه إنّما خانت به زوجها، وأنّه إعلان بأنّ الطّفل من ثمرة زناها !...

فهل في الدّنيا عاقل يحمل كلام النّاس هذا، الذي يتكرّر كلّ يوم، على هذا المعنى الشّنيع الّذي لا يخطر من أحدهم على بال؟.

ثمّ ألا يوسع هذا الكاتب من تأمّله قليلاً، ليدرك مالا يعجز أيّ عقل عن إدراكه، وهو استحالة سكوت رسول الله - لو كان هذا هو مرادها من كلامها - على هذا الاتّهام، بل على هذا القذف ؟!... إن لم يمنعه عن السّكوت دفاعه عن مكانته وشرفه، منعه منه قيامه بحراسة حدود الله أن تضيّع.

مثل هذا الكلام، إن كان معناه ماقد طاب للكاتب أن يفهمه منه، لابدّ أن يُخضع قائله للمناقشة والتّحقيق، ولابدّ أن يتولّى محمّد عليه الصّلاة والسّلام الّذي كان بيده السُّلطة القضائيّة، هذا النّقاش والتّحقيق من أوّله إلى منتهاه، ثمّ لابدّ أن ينفّذ

حكم الله، إن في حقّ عائشة لأنّها قاذفة، وإن في حقّ مارية لأنّها زانية... فما له تلقّى هذا الكلام غير عابئ به ولا مُلتفت إلى هذا الاتّهام بل القذف الكامن في تضاعيفه ؟! وكيف أغضى الطّرف عنه، كما لو كان نكتة زُيِّنَ بها المجلس ؟!...

ولكن، فلنعد ثانية إلى الكلام الّذي نطقت به عائشة، أين هي رائحة المعارضة فيه، فضلاً عن دلالته على الاتّهام والقذف؟

وهل سجّل التّاريخ لعائشة تجاه رسول الله إلاّ مواقف الحبّ له والتّفاني في بلوغ مرضاته، حتّى يبقى أي مجال أو احتمال لجرّ هذه الكلمة التي قالتها عن ابراهيم إلى أيّ معنى ممّا يؤذي رسول الله ؟!...

أليست هي التي قالت له، وقد استأذنها، ذات ليلة ليقوم فيعبد ربّه : «إنّني أحبّ قربك ولكنّي أوثر هواك»[1]؟

أليست هي التي قالت له - وقد خيّرها طالباً أن تستشير أبويها بين البقاء معه على شظف من العيش، وبين أن يمتعها بكلّ أسباب النّعيم ثمّ يطلّقها -: أفيك أستشير أبوي

---

[1] - رواه أبو بكر بن مردوية، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن حبّان في صحيحه، كلّهم عن عطاء بن أبي رباح.

يارسول الله؟ بل أختار الله ورسوله والدّار الآخرة[١] .

أفهذا هو شأن من تقود جبهة معارضة ضدّ رسول الله؟!...

أم ترى هل كان حبّه الشّديد لها، من أجل أنّها تمثّل عنصر معارضة له داخل منزله وفيما بين أسرته ونسائه ؟!...

إن أقل ما ينبغي أن يتحلّى به الباحث في أمر ما أو الّذي يحلم من وراء أخيلته بأمنية ما، إحترام عقول النّاس والإذعان للبدهيات ... فمن كان يزدري العقول بحديثه ويحاور النّاس على أساس أنّهم مغفّلون تنطلي عليهم أفانين الخداع وأساليب العبث بالألفاظ، أو كان من شأنه التعامي عن البدهيات والالتفاف حول أسوارها - عاش سجين أوهامه، ولم ينظر النّاس إليه إلاّ بعين الاحتقار والإشفاق. ومهما عزى نفسه بمكايدة الحقّ والسّعي إلى إحلال الباطل في مكانه، فإنّ الحقّ لا يزلقه عن مستقره شيء، والباطل لا يمكن أن يرقى به إلى صعيد الحقّ أيُّ تلبيس أو تمويه[٢] .

---

[١] - الحديث متّفق عليه وقد مرّ من قبل.

[٢] - انظر كتاب (( هذه مشكلاتهم )) لكاتب هذا البحث، لتعلم قصّة هذا الكاتب الصّحفي الذي طاب لـه أن يقلّد السيّدة عائشة وظيفة تمثيل جبهة المعارضة في الدّولة الإسلامية التي بناها رسول الله. انظر ص ٩٨ منه.

## عَائِشَةُ فِي عَصْرِ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ وَمَا بَعْدَهَا:

تألّقت المكانة العلميّة للسيّدة عائشة بعد وفاة رسول الله ﷺ، وازداد رجوع العامة والخاصة إليها، في الاستفتاء عن الأحكام والاستيثاق من الرّوايات التي تنسب إلى رسول الله، والاستشارة في المعضلات.

وإذا تأمّلت في حياة الخلفاء الرّاشدين، رأيتهم جميعاً يعتمدون على الشّورى، في كلّ ما لا نصّ فيه من المشكلات، ورأيت عائشة رضي الله عنها في مقدّمة من كانوا مرجعاً لهم في المشورة وطلب الرّأي.

ففي عهد أبي بكر، أوّل خليفة بعد رسول الله، أرسل بعض أمّهات المؤمنين عثمان إلى أبي بكر ليذكره بميراثهن من رسول الله ﷺ، فجاء من يستشير عائشة في هذا الأمر، فأنكرت ذلك قائلة: أو ليس قد قال رسول الله: (( لا نُورَثُ، ما تركناه فهو صدقة ))[1].

غير أنّها مرّت بعهد من العزلة بعد وفاة النبيّ ﷺ، كانت تلازم

---

[1] البخاري في كتاب الخمس ومسلم في كتاب الجهاد.

خلالها كما قالوا حجرتها بجوار مرقده عليه الصّلاة والسّلام، وكان أبو بكر مشغولاً في الفترة ذاتها بحروب الرّدة ومعالجة أمر مانعي الزّكاة.

ثمّ لم تطل به رضي الله عنه الحياة، فقد توفّي هو الآخر عن ثلاثة وستين عاماً، كرسول الله ﷺ، وكانت مدّة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيّام.

ولمّا مرض أبو بكر رضي الله عنه، حبست عائشة نفسها على رعايته وتمريضه. روى أحمد في مسنده أنّها لما رأت والدها وقع في سياق الموت جعلت تنشد قول حاتم:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى

إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصّدر

فقال لها : لاتقولي هكذا يابنية. ولكن قولي: ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحقِّ ذلك ما كنت منه تحيد ﴾. وعادت، تتمثّل بقول القائل :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر: ذاك رسول الله ﷺ.

وعهد أبو بكر إلى عائشة، دون غيرها بتنفيذ وصيّته، وكان

قد قال فيها مخاطباً عائشة: (( إنّي قد كنت نحلتك حائطاً (أي بستاناً) وإنّ في نفسي من ذلك شيئاً، فردّيه إلى الميراث ))
فقالت: نعم، وردّته.

وكان قد قال لها أيضاً في وصيته:

(( أمَا إنّا منذ وُلِّينا أمر المسلمين، لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً، ولكنّا قد أكلنا من جريش طعامهم، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وليس عندنا من فْيءِ المسلمين قليل ولا كثير إلاّ هذا العبد الحبشي، وهذا البعير النّاضح، وجرد هذه القطيفة. فإذا متّ فابعثي بهنّ إلى عمر، وأبرئيني منهن )).

ففعلت عائشة ذلك بعد وفاته، وأنجزت بنود وصيّته كلها. ولمّا أرسلت إلى عمر بتلك الأمانات طبقاً لما قد أوصى، بكى عمر حتّى جعلت دموعه تسيل على الأرض، وقال: رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده[1].

وازداد الاعتماد عليها في عهد عمر، فكان النّاس يفدون إليها من الأقطار البعيدة ليستفتوها فيما قد أشكل عليهم من أمور دينهم. وكان عمر يحيل إليها سائر المشكلات

---

[1] ابن سعد في الطّبقات : ٣/١٣٩ وانظر حياة الصّحابة : ٢/٤٦٠ و ٤٦١.

والقضايا المتعلّقة بالمرأة.

روى ابن سعد في الطّبقات من حديث عبد الرّحمن بن القاسم عن أبيه، قال: كانت عائشة رضي الله عنها قد استقلّت بالفتوى في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وهلمّ جراً إلى أن ماتت [1].

وقد كان عمر رضي الله عنه كثير التّقدير لأمّهات المؤمنين والاهتمام بهنّ جميعاً لاسيما عائشة، كثير الإكرام لهن. روى أبو عبيدة في كتابه الأموال أنّ عمر لما افتتح العراق والشّام وجبى الخراج، جمع أصحاب النبيّ ﷺ، فقال: (( إنّي قد رأيت أن أفرض العطاء لأهله الّذين افتتحوه )) فقالوا: نعم الرّأيُ رأيت يا أمير المؤمنين. قال: فبمن نبدأ ؟ قالوا: ومن أحقّ بذلك منك ؟ ابدأ بنفسك، قال: لا، ولكنّي أبدأ بآل بيت رسول الله ﷺ. فكتب عائشة أمّ المؤمنين في اثني عشر ألفاً. وكتب سائر أزواج النبيّ ﷺ في عشرة آلاف عشرة آلاف.[2]

---

(1) طبقات ابن سعد ٤ / ١٨٩ طبعة مصر .

(2) الأموال لأبي عبيد: ص ٢٢٤ . ولاحظ كيف أنّ عمر كان يرى أنّ زوجات النبيّ ﷺ ، جزأ لا يتجزّأ من آل بيته. وهو التصوُّر الذي كان يراه سائر آل بيته وسائر أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

وكانت السيّدة عائشة تجلّ عمر وتقدّره وتهابه وكان يبادلها مثل هذا الإجلال، روى ابن سعد أنّ عمر أرسل ابنه عبد الله، قبيل وفاته أن: انطلق إلى عائشة أمّ المؤمنين، فقل: يقرأ عليك عمر السّلام. ولا تقل أمير المؤمنين، فإنّي لست اليوم للمؤمنين أميراً. وقل: يستأذن عمر ابن الخطّاب أن يدفن مع صاحبيه.

فمضى، فسلّم واستأذن، ثمّ دخل عليها، فوجدها قاعدة تبكي، فسلّم عليها وقال: يقرأ عليك عمر السّلام، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه. قالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنّهُ به اليوم على نفسي.

فلمّا أقبل قيل: هذا عبد الله قد جاء، قال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه، فقال: ما لديك؟ قال: الّذي تحبّ يا أمير المؤمنين، أَذِنَتْ. قال: الحمد لله، ما كان شيء أهمَّ من ذلك المضجع. يا عبد الله بن عمر، فإذا أنا قُبضت فاحملوني على سريري، ثمّ قف بي على الباب. فقل: يستأذن عمر بن الخطّاب، فإن أذنت لي فأدخلني، وإن ردّتني فردّني إلى مقابر المسلمين، فإنّي أخشى أن يكون إذنها لي لمكان السّلطان، فلمّا حُمِلَ، فكأنّ المسلمين لم تصبهم مصيبة إلاّ يومئذٍ، فأذِنت عائشة له فدُفن رضي الله

عنه حيث أكرمه الله مع النبيّ ﷺ وأبي بكر رضوان الله عليه.[1]

واستمرّت مكانتها العلميّة في عهد عثمان، وازداد إقبال النّاس إليها من سائر الأقطار والأمصار النّائية، يستفتونها في أمور الدّين وأحكامه. ولم يكن عثمان أقلّ اهتماماً بعائشة وتقديراً لها من عمر رضي الله عنه.

وكانت عائشة تجلّه وتقدّره وتنافح عنه، وقد استقلّت برواية كثير من الأحاديث عن رسول الله ﷺ في فضل عثمان. من ذلك ما رواه مسلم من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعاً في بيتي كاشفاً عن ساقيه، فاستأذن أبو بكر، فأذن له وهو على تلك الحال فتحدّث.. ثمّ استأذن عمر، فأذن له وهو كذلك، فتحدّث... ثمّ استأذن عثمان، فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه، فدخل فتحدّث.. فلمّا خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله، ثمّ دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثمّ دخل عثمان فجلست وسوّيت ثيابك !!.. فقال: ألا أستحيي من رجل تستحي منه الملائكة؟.[2]

---

[1] سيرة عمر بن الخطّاب لعلي الطّنطاوي ص ٦٢١ الطّبعة الأولى.

[2] صحيح مسلم، باب فضائل عثمان.

ولـمّا سمعت بعـض النّـاس ينـال مـن عثمـان، غضبـت غضبـاً شديداً، وقالت: لعن الله من لعنه، لعـن الله مـن لعنـه، لقـد رأيـت رسول الله ﷺ وهو مسند فخذه إلى عثمـان وإنّـي لأمسـح العـرق عن جبين رسول الله وإنّ الوحي يـنزل عليـه، ولقـد زوّجـه ابنتيـه الواحدة بعد الأخرى، وإنّه ليقول: اكتب عُثَيْمُ. قـالت: مـا كـان الله لينزل عبداً من نبيّه بتلك المنزلة إلاّ وهو عبد كريم عليه.[1]

وهي التي روت عـن رسـول الله ﷺ أنّـه قـال لـه: يـا عثمـان، إنّـه لعـلّ الله يقمّصـك قميصـاً، فـإن أرادوك علـى خلعـه فلا تخلعه لهم.[2]

وظلّت السيّدة عائشة على مودّتها لعثمـان وتقديرهـا لـه، إلى أن قتل، فكانت من أول من طالب بدمه والاقتصاص من قتلته.

وقـد زعـم بعـض الكـاتبين المعـاصرين أنّ هـذا الـودّ شـابته خلافـات، وأنّ عائشـة كـانت تنقـم مـن عثمـان بعـض مواقفـه وتصرّفـاته، وربّمـا اتّهموهـا بأنّهـا سـاهمت في تأليب النّاس على

---

[1] السيدة عائشة لعبد الحميد طهماز عن مسند الإمام أحمد والطّبراني.

[2] الحديث بهذا اللّفظ من رواية التّرمذي عن عائشة. والمراد بالقميص الخلافة، أي فـإن قصـد النّـاس عزلـك فـلا تعـزل نفسـك عنهـا. وروايـة ابـن ماجـه ( إن ولاّك الله هذا الأمر يوماً..).

عثمان، حتّى حدث له ما حدث.

وممّا يؤسف له أنّ أصحاب هذا الزّعم يعتمدون في تصوّراتهم الباطلة هذه على كتاب الأغاني، والعقد الفريد لابن عبد ربّه وأمثالهما، ممّا عرف العامّة والخاصة، أنّ مؤلّفيها جمعوا أشتات الرّوايات في كتبهم كحاطب ليل دون تمييز بين صحيح وضعيف وساقط.. إذ كان همّهم إمتاع القارئ بطرائف النّوادر والأخبار، أيّاً كانت مصادرها ومهما تدنّت قيمتها ومصداقيّتها.

ولا مجال هنا، في هذه العجالة السّريعة، لنقل ما يزعمه هؤلاء الكاتبون، وبيان بطلان تصوّراتهم ونقولهم. ولكنّا نحيل إلى تفصيل وافٍ موفق في بيان ذلك كله، كتبه الأستاذ عبد الحميد طهماز في كتابه «السيّدة عائشة أمّ المؤمنين، وعالمة نساء الإسلام».[1]

ولعلّ في الأحاديث التي أوردناها من رواية عائشة في فضل عثمان، وفي قولها، وهي غضبى: لعن الله من لعن عثمان، لعن الله من لعن عثمان – ما يُسْقِطُ إلى الحضيض كلّ لغو يحاول أن يخيّل بأنّ عائشة كانت تنقم من عثمان وأنّها

---

[1] انظر كتاب عائشة، هذا، من الصّفحة ٩٩ إلى ١١٤.

ساهمت في تأليب النّاس عليه.

على أنّ في النّاس اليوم من يخلطون بين الخلافات الاجتهاديّة التي عرف بها الصّحابة رضوان الله عليهم، وفي مقدّمتهم عائشة رضي الله عنها، والنّزاعات النّفسيّة التي تبعث على الضّغائن والبغضاء، وهي ما تنزّه عنه جلّ أصحاب رسول الله، وفي مقدّمتهم عائشة.

لقد خالفت عائشة كثيراً من الصّحابة في بعض اجتهاداتهم الفقهيّة وربّما الاعتقاديّة والاجتماعيّة. وقد جمع الزركشي من ذلك رسالة سمّاها: الإجابة فيما استدركته عائشة على الصّحابة، وخالفت عثمان رضي الله عنه في بعض اجتهاداته السّياسيّة، وقد أشارت إلى بعضها في حوارها مع عمران بن حصين يوم أرسله إليها عثمان بن حنيف (وقد سبق ذكره).

غير أنّ تلك الخلافات لم تستتبع أيّ نقمة كما يصوّر بعض كتاب اليوم. كيف، ولو صحّ ذلك لما نقمت على قتلة عثمان، ولما خرجت ثائرة تطالب بالقصاص والثّأر لعثمان.

إنّ مصيبة هؤلاء الكتّاب أنّهم يقيسون أصحاب رسول الله على أنفسهم.

ونظراً إلى أنّ هؤلاء النّاس، يجعلون من آرائهم الاجتهاديّة

غذاء لشخصيّاتهم وعصبيّاتهم، بل إنّ الواحد منهم ينظر إلى المذهب أو الرّأي الذي يتبنّاه كما لو كان هو الدّين الحقّ الذي لا دين سواه. ومن ثمّ فلا بدّ أن يسفه ويضلّل أصحاب المذاهب والآراء المخالفة أيّاً كانوا، ولابدّ أن تنقدح مشاعر الأحقاد من جراء ذلك فيما بينهم - نظراً إلى ذلك، فإنّ خلافات الصّحابة ينبغي أن تقاس على خلافاتهم هذه وما تحدثه من شقاق وبغضاء .. وإذا كان للسيّدة عائشة رأي مخالف للسّياسة التي انتهجها عثمان، فينبغي أن يكون ذلك الخلاف عنواناً على شحناء وبغضاء، تماماً كما أنّ خلافاتهم اليوم فيما بينهم، هي فعلاً عنوان على ما هو شرّ من الشّحناء والبغضاء.

أجل .. إنّ الجريمة الكبرى، تتمثّل في هذا القياس الباطل.

فإن استشكلت ما انتهى إليه خلاف عائشة مع علي، من الأحداث المؤلمة، فدونك فاسمع جواب ذلك في الصّفحات الآتية.

* * *

عندما قتل عثمان، كانت عائشة في مقدّمة من دعا إلى مبايعة علي رضي الله عنه، فلم يكن يسألها أحد عمّن هو أولى بهذا الأمر بعد عثمان، إلاّ أشارت إلى علي ودعت إلى مبايعته.

روى الحافظ بن حجر عن الطّبري عن الأحنف بن قيس، قال: حججنا، فإذا النّاس مجتمعون في وسط المسجد، يعني النّبوي، فلقيت طلحة والزّبير، فقلت: لا أرى هذا الرّجل، يعني عثمان، إلاّ مقتولاً، فمن تأمراني به ؟ قالا: عليّ. فقدمنا مكّة، فلقيتُ عائشة، وقد بلغنا قتل عثمان فقلت لها: من تأمريني به؟ قالت: عليّ. قال فرجعنا إلى المدينة فبايعت عليّاً ورجعت إلى البصرة.[1]

وكانت عائشة تقدّر عليّاً، وتنوه في المناسبات بمكانته العلميّة، وكثيراً ماكانت تحيل السّائلين إليه مبيّنة فضله ومكانته وقربه من رسول الله ﷺ.

ولم يشوّش على بعض الباحثين صلة التّقدير والقربى هذه بين علي وعائشة، إلاّ اهتمامها بالثّأر لعثمان وسعيها للاقتصاص من قتلته، وخروجها إلى البصرة وما تلا ذلك من الحرب المستعرة الهوجاء في وقعة الجمل.

---

[1] انظر فتح الباري: ١٣/٢٧.

فإذا علمت أن في الباحثين والمهتمين بالتّاريخ وأحداثه، من يمتهن صنعة الدسّ والتّزوير، والكذب على الأحياء والأموات، ليعكّر بذلك صفو الوقائع التّاريخيّة الواضحة، كي يتاح له بعد ذلك أن يصطاد بالماء العكر، أدركت مدى صعوبة اختراق الباحث لهذه الأغشية من الملابسات والدّسائس المختلفة، كي يصل بعد ذلك إلى رؤية الأحداث على طبيعتها وكما هي في واقعها.

ولكن مهما يكن، فما من باحث يرغب بصدق في أن يتجاوز هذه المعكرات، على اختلافها، ليصل إلى رؤية الحقّائق صافية عن اللّبس والتزييف، إلاّ ويجد السّبيل أمامه مفتوحاً إلى ذلك.

## الفِتْنَةُ ٱلسَّوْدَاءُ وَٱلضَّحَايَا ٱلْبُرَآءِ :

ولنقل كلمة وجيزة تتناسب مع هذه العجالة، في الكشف عن جوهر هذه المأساة، والأيدي الخفيّة التي حاكت خيوطها ثمّ ألهبت نيرانها، بعيداً عن تشويش الأحدوثات الجانبيّة، وعن الاعتماد على ما قد توحي به نفسيّة الباحث من أخيلة شتّى، في نطاق المنهج التّحليلي الذّاتي الّذي طالما حمّل التّاريخ ما لم يحمل ولوّنه بأطياف من الألوان هو منها بعيد وبَريء !..[1]

لـمّا وقع قتل عثمان، بعد أيّام التّشريق، كان أزواج النبيّ قد خرجن إلى الحجّ في ذلك العام، فراراً من الفتنة.. فلمّا بلغهنّ مقتل عثمان آثرن البقاء في مكّة، ريثما ينجلي الأمر.

وفي تلك الأثناء تمّت البيعة لسيّدنا عليّ في المدينة .. وكان قد استأذنه كلّ من طلحة والزّبير في الاعتمار، بعد أن بايعاه

---

[1] اعتمدنا في عرض هذا الموجز والدّقّة في بيان الواقع، على مافصّله في ذلك ابن كثير في كتابه البداية والنّهاية، ليقيننا بأنه من أوثق من كتب في التّاريخ ومن أعدل من جلّى واقع هذه المأساة، ولا تنس أنّه الحافظ النّاقد. انظر البداية والنّهاية: ٢٣٠/٧ فيما بعد.

ودعيا النّاس إلى بيعته، وكان قد قدم مكّة أيضاً في ذلك العام يعلى بن أميّة، عامل عثمان على اليمن، وعبد الله بن عامر من البصرة وكان عاملاً عليها لعثمان. فاجتمع بذلك في مكّة جمع كبير من سادات الصّحابة وأمّهات المؤمنين. فتذاكروا فيما بينهم مقتل عثمان، وما ينبغي عمله. فخطبت فيهم عائشة تحثّهم على القيام بطلب دم عثمان - وكان عليّ رضي الله عنه أكّد للصّحابة ضرورة السّعي إلى المطالبة بدم عثمان والاقتصاص من قاتليه، ولكنّه استمهلهم ريثما تستتبّ له الأمور وينتهي من تمرّد أهل الشّام تحت قيادة معاوية - فاستجاب النّاس لقول عائشة، وأعلنوا جميعاً أنّهم سائرون في سبيل ذلك حيث سارت بهم.

ثمّ تشاوروا إلى أين يذهبون لتحقيق هذه الغاية، فمن قائل إلى الشّام، ومن قائل إلى المدينة ومن قائل بل إلى البصرة، لتكون البداءة بتعقّب قتلة عثمان هناك. وهذا ماتمّ الاتّفاق عليه أخيراً.

ولمّا اتّجهت هي ومن معها - وكانوا بضعة آلاف - إلى البصرة، مرّوا في طريقهم ليلاً بماء يقال له الحوأب، فنبحتهم كلاب عنده، فسألت عائشة: ما اسم هذا المكان؟

قالوا: الحوأب. فضربت بإحدى يديها على الأخرى وقالت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ما أظنني إلاّ راجعة!.. قالوا: ولم؟ قالت: سمعت رسول الله يقول لنسائه: «ليت شعري أيّتكن التي تنبحها كلاب الحوأب» ثمّ أناخت بعيرها، وقالت: ردّوني ردّوني أنا والله صاحبة ماء الحوأب [1] ثمّ جاء عبد الله بن الزبير فقال لها: إنّ الذي أخبرك أنّ هذا ماء الحوأب قد كذب. ولم يزل بها حتّى أقنعها بمواصلة السّير إلى البصرة.

ولمّا وصلت ومن معها إلى مداخل البصرة، أرسل عثمان بن حنيف عامل عُثمان على البصرة يسأل عائشة ومن معها عن سبب مقدمهم، فقالت: جئنا نطالب بدم عثمان. فتشاور عثمان بن حنيف وصحبه، فقال البعض: إن كانوا يطالبون بدم عثمان فما نحن بقتلته، فلنردهم إلى حيث أتوا، وقال آخر: إنّما جاؤوا ليستعينوا بنا على قتلة عثمان منّا ومن غيرنا.. وعلم عثمان بن الحنيف من مجرى الحوار أنّ لقتلة عثمان بالبصرة أنصاراً.

ونزلت عائشة ومن معها في ضاحية قريبة من البصرة تسمّى

---

[1] أورد ابن كثير هذا الحديث بطرقه وألفاظه في دلائل النبوّة. وانظر البداية والنّهاية: ٧/٢٣٢.

المربد، وخرج إليها من البصرة من أراد أن ينضمّ إليها. وعادت تقنع النّاس بضرورة المطالبة بدم عثمان وتعقّب قتلته، وجرى نقاش في ذلك.

وأقبل في تلك الأثناء حكيم بن جبلة، وهو من قتلة عثمان، في جمع كان معه، فأنشب القتال ضدّ عائشة ومن معها. وجعل أصحاب أمّ المؤمنين يكفون أيديهم ويمتنعون عن القتال. ولكن حكيماً جعل يقتحم بمن معه عليهم، فاقتتلوا، وما حجزهم إلاّ إقبال اللّيل. وواصلوا القتال في اليوم الثّاني، وقتل من طرف حكيم بن جبلة خلق كثير.. وكاد الجيش الّذي فيه عائشة وطلحة والزّبير يسيطر على البصرة وتمّت السّيطرة على بيت المال، فثار جماعة من قتلة عثمان، تحسّباً للأخطار التي ستحدق بهم، بلغوا ثلاثمائة مقاتل يقودهم حكيم بن جبلة، وقاتلوا جيش عائشة قتالاً ضارياً، وكانت النّتيجة أن قتل حكيم وما لا يقلّ عن سبعين من قتلة عثمان.

أمّا عليّ رضي الله عنه، فقد حوّل وجهته عن الشّام إلى البصرة، لمّا علم بهذا الّذي جرى. وأعلن في الجيش الّذي معه أنّه متّجه إلى البصرة. فقال له أحدهم: يا أمير المؤمنين أيّ شيء تريد؟ وأين تذهب بنا؟ قال: أمّا الّذي ننوي ونريد

فالإصلاح إن قبلوا منّا وأجابوا إليه. قال: فإن لم يجيبوا إليه؟ قال: ندعهم بغدرهم ونعطيهم الحقّ ونصبر. قال: فإن لم يرضوا؟ قال: ندعهم ما تركونا. قال: فإن لم يتركونا ؟ قال: امتنعنا منهم، قال: فنعم إذن.

ولـمّا كان في الطّريق إلى الكوفة، جاءَهُ رجل منها اسمه عامر بن مطر الشّيباني، فقال له علي: ما وراءك؟ فأخبره الخبر. فسأله عن أبي موسى الأشعري، فقال: إن أردت الصّلح فأبو موسى صاحبه. وإن أردت القتال فليس بصاحبه. فقال علي: والله لا أريد إلاّ الصّلح.

ثمَّ أرسل عليّ رسلاً إلى أبي موسى الأشعري عامل عثمان على الكوفة، وقامت بين الطّرفين سفارات وأقوال ومعاتبات، وكان في الرّسل الّذين كانوا يتحرّكون بينهما، من قبل علي، عمّار بن ياسر والحسن بن علي... وسمع عمّار أثناء ذلك من يسبّ عائشة. فقال له: اسكت مقبوحاً منبوحاً والله إنّها لزوجة رسول الله ﷺ في الدّنيا والآخرة. ولكن الله ابتلاكم بها ليعلم أتطيعونه أو إيّاها.[1]

ودعا كلّ من عمّار والحسن النّاس في الكوفة إلى السّير

---

[1] الحديث رواه البخاري، وقد مرّ.

إلى أمير المؤمنين ابتغاء الاتّفاق معه على الصّلح وجمع الشّمل. واستجاب النّاس فخرج معهما قرابة اثني عشر ألف رجل وقدموا على أمير المؤمنين، فتلقّاهم بذي قار وقال لهم: يا أهل الكوفة، أنتم لقيتم ملوك العجم ففضضتم جموعهم. وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة. فإن يرجعوا فذاك الّذي نريده، وإن أبوا داويناهم بالرّفق حتّى يبدؤونا بالظّلم، و لم ندع أمراً فيه صلاح إلاّ آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله.

وعندئذٍ بعث عليٌّ القعقاعَ بن عمرو - وكان واحداً ممّن وفد إليه من الكوفة - رسولاً إلى كلّ من عائشة وطلحة والزّبير بالبصرة يدعوهم إلى الألفة والجماعة... فذهب القعقاع فبدأ بعائشة أمّ المؤمنين فقال: أي أمّاه، ما أقدمك هذا البلد؟ فقالت: أي بني، الإصلاح بين النّاس، فسألها أن تبعث إلى طلحة والزّبير ليحضرا عندها. فحضرا. فقال القعقاع: إنّي سألت أمّ المؤمنين ما أقدمها، فقالت: إنّما جئت للإصلاح بين النّاس. فقالا: ونحن كذلك. قال: فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح وعلى أيّ شيء يكون ؟ قالا: قتلة عثمان، فإنّ هذا إن ترك كان تركاً للقرآن. فقال: قتلتما قتلته من أهل البصرة، وأنتما قَبْلَ قَتْلِهم أقربُ منكم إلى الاستقامة منكم اليوم... قتلتم ستمائة رجل

فغضب لهم ستة آلاف فاعتزلوكم، وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف. فإن تركتموهم وقعتم فيما تقولون، وإن قاتلتموهم كان الّذي حذّرتم وفرقتم من هذا الأمر أعظم ممّا أراكم تجمعون منه[1] وكما أنّكم عجزتم عن الأخذ بثأر عثمان من حرقوص بن زهير، لقيام ستّة آلاف يمنعونه منكم، فعليٌّ أعذر في تركه الآن قتل قتلة عثمان. وإنّما أخّر قتل قتلته إلى أن يتمكّن منهم.

قالت عائشة: فما تقول أنت ؟

قال: أقول، إنّ هذا الأمر الّذي وقع، دواؤه التسكين، فإذا سكن اختلجوا. فإن أنتم وافقتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة، وإدراك للثّأر. وإن أنتم أبيتم إلاّ مكابرة كانت علامة شرّ وذهاب لهذا الملك ...

قالوا: قد أصبت وأحسنت، فارجع، فإن قدم عليٌّ وهو على مثل رأيك صلح الأمر.

ورجع القعقاع فأخبر عليّاً بما جرى فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصّلح، وأرسلت عائشة إلى عليّ تؤكّد له

---

[1] يقصد أنّ الّذي تريدونه من تعقّب قتلة عثمان مصلحة، ولكن تترتّب عليه مفسدة هي أربى منها.

أنّها إنّما جاءت للصّلح، ففرح هؤلاء وهؤلاء. وخطب عليّ فأخبر النّاس بهذا الاتّفاق، وقال لهم: إنّي مرتحل غداً فارتحلوا، أي إلى البصرة لملاقاة جيش عائشة ومن معها ابتغاء الاتّفاق والمصالحة.

وأصبح عليّ مرتحلاً بكل من معه، وسارت عائشة وطلحة والزّبير للقائه واستقباله ... وأشار بعض النّاس على طلحة والزُّبير بانتهاز الفرصة والهجوم بغتة على من يدركونهم من قتلة عثمان. فقالا إن أمير المؤمنين أشار بتسكين هذا الأمر، وقد بعثنا إليه بالمصالحة على ذلك.

وجاء من يسأل عليّاً وهو متّجه بمن معه إلى البصرة للتّوفيق والصّلح: هل لهؤلاء القوم حجّة فيما طلبوا من هذا الدم؟ قال: نعم. قال: فهل لك من حجّة في تأخيرك ذلك ؟ قال: نعم. قال فما حالنا وحالهم إن ابتلينا غداً ؟ قال: إنّي لأرجو أن لا يقتل منّا ومنهم أحد نقّى قلبه لله إلاّ أدخله الله الجنّة.

وتلاقى الفريقان، واطمأنّت النّفوس وسكنت، واتّفق الكلّ على ترك هذه المشكلة ووضعها بين يدي أمير المؤمنين ليحلّها في الوقت المناسب الّذي يراه. وبات النّاس - كما يقول ابن كثير - بخير ليلة، وبات قتلة عثمان بشرّ ليلة.

ولكن فما الّذي تمّ بعد ذلك ؟

إنّ الّذي جرى بعد ذلك هو أنّ سلسلة الفتن التي ابتدأها أبطالها بقتل عثمان، والتي اتّجهت إلى تمزيق شمل المسلمين وإحداث الشّدوخ والثّغور في بنائهم الحضاري، توالت حلقاتها، وقد كان رجال تلك الفتنة والباعثون لها غريبين عن جسم الجماعة الإسلامية المتمثلة في كلا الفريقين والجيشين.

فما إن أعلن علي رضي الله عنه الصّلح والوفاق وأبلغ النّاس أنّه مرتحل من الغد، وتبيّن كيف صدّق الواقع ذلك، فتلاقى الفريقان واتّحد منهما القصد واجتمع الشّمل على أحسن حال، حتّى اجتمع رجال من رؤوس الفتنة، فيهم الأشتر النّخعي، وشريح بن أوفى، وعبد الله بن سبأ المعروف بابن السّوداء، وسالم بن ثعلبة، وغلام بن الهيثم. ولم يكن فيهم بحمد الله - كما يقول ابن كثير - واحد من الصّحابة. وكان شرّهم والمخطط الأوّل فيهم عبد الله بن سبأ.[1] وجمعوا من وراءهم جموعاً لهم بلغت الآلاف. فتذاكروا فيما بينهم خطورة اتّفاق عليّ

---

[1] انظر ترجمته في سائر كتب التّاريخ والتّراجم، من ذلك البدء والتّاريخ : ١٢٩/٥ ولسان الميزان: ٣ / ٢٨٩ وتهذيب ابن عساكر ٧ : ٤٢٨ وميزان الاعتدال: ٤٢٦/٢ والبداية والنّهاية في أماكن متفرّقة، ←

وعائشة ومن معهما، وقرّروا أنّ اتّفاق الصّحابة هذا يعني إحداق الخطر بهم. وقال منهم قائل: فلنلحق إذن عليّاً بعثمان!..

ولكن عبد الله بن سبأ سخّف هذا الرّأي وحذّر منه. ثم قال: إنّ نجاتكم في مخالطة النّاس. فإذا التقى النّاس، فاندسّوا فيهم، وانشبوا الحرب والقتال بينهم. ولاتدعوهم يجتمعون. وسيمتنع من حولكم بالقتال دفاعاً عن نفسه.

وتفرّق رؤوس الفتنة بعد أن اتّفقوا على هذا الرّأي، وأوعزوا إلى من معهم بمهمّة التّنفيذ. فتواصوا فيما بينهم على تحقيق ما رآه ابن سبأ، وأن يندسّوا في صفوف النّاس في ظلام اللّيل،

---

← منها: ٧/٢٤٠ وقد أجمع كلّ من ترجم له على أنّه من غلاة الزّنادقة. قال عنه الذّهبي: ضال مضل، كان يزعم أنّ القرآن جزء من تسعة أجزاء وأنّ علمه عند علّي. وقال: أحسب أنّ عليّاً أحرقه بالنّار.

والعجيب أنّ في الشيعة اليوم من يكابر فيقول: إنّه شخصيّة خياليّة لا وجود لها .. ولكن كيف تمَّ وجودُ ابن سبأ هذا في قرار سائر المؤرّخين والمترجمين من أيّام التّابعين إلى يومنا هذا. ثمّ تحوّل فجأة في قرار بعض النّاس اليوم، أي بعد أربعة عشر قرناً إلى شخصيّة وهميّة لا أصل لها؟ ... أليس معنى ذلك أنّ كلّ أولئك المؤرّخين والنقّاد والمترجمين، هم الآخرون شخصيّات وهميّة لا أصل لها ؟!...

ويثيروا الحرب، كلٌّ على مَن حوله، من الغلس، وأن يستدرجوا النّاس إليها مهما كلّف الأمر.

فتأمّل الآن في هذه الفتنة عندما تطلّ برؤوسها الكثيرة، ثم تتسرّب وسط الظّلام بعناصرها وفئاتها. إنّ من الطّبيعي أن تُفقد الناسَ سلامة الرؤية، فلا يستطيعون أن يتبيّنوا مواطيء أقدامهم، وأن تستلب منهم طاقة التريث والنّظر والتمهّل. فلا يجدون مناصاً من التحرّك في فلك ذلك الإعصار المحيط بهم.

يقول ابن كثير - وهو كما قلنا أوثق من روى أنباء هذه الفتنة وحللها بموضوعية وعمق -:

« فنهضوا - أي هؤلاء المتآمرون - وهم قريب من ألفي رجل، قبل طلوع الفجر، فانصرف كلّ فريق إلى من يليهم، فهجموا عليهم بالسّيوف، فثارت كلّ طائفة إلى قومهم ليمنعوهم. وقام النّاس من منامهم إلى السّلاح. فقالوا طرقتنا أهل الكوفة ليلاً وبيّتونا وغدروا بنا. وظنّوا أنّ هذا تمّ عن ملأ من أصحاب عليّ. فبلغ الأمر عليّاً. فقال: ما للناس ؟ فقالوا: بيتنا أهل البصرة وغدروا بنا، فثار كلّ فريق إلى سلاحه ولبسوا اللّأمة وركبوا الخيول، ولا يشعر أحد بما وقع الأمر عليه في نفس الأمر. وكان أمر الله

قدراً ومقدوراً. وقامت الحرب وتواقف الفريقان، وقد اجتمع مع علي عشرون ألفاً، والتفّ على عائشة ومن معها نحو من ثلاثين ألفاً، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون. والسّائبة أصحاب ابن السّوداء قبّحه الله لا يفترون عن القتل[1] ومنادي علي ينادي: ألا كفّوا.. ألا كفّوا.. فلا يسمع أحد )).[2]

ولست أرى أي خير - بعد هذا الّذي عرفت - في أن نتحدّث عن تماوج الفتنة التي شلّت إرادة الجميع، فلم تدع لأيّ منهم قدرة على اتّخاذ قرار أو التّماسك والانضباط عند حدّ.

وليت شعري ماذا عسى أن يكون حال أحدنا، لو استيقظ فرأى نفسه في خضم هذا الهياج، دون أن يعلم له مبعثاً ولا يعثر منه على مفر؟!.. وهل بوسعه إلاّ أن يذود عن نفسه البلاء الّذي لا يدري من أين يأتيه؟ وهل يذود عن نفسه إلاّ بمثل السّلاح الّذي يقاتَل به؟

وهكذا دارت رحا الفتنة على آلاف البراء من الطّرفين، بهذه الخطّة الخبيثة الماكرة التي لم تُعرف إلاّ من بعد، وأحاط

---

[1] من الواضح أنّهم تسرّبوا إلى المسلمين متخفّين، وأنشبوا القتال بينهم طبق خطّة ابن سبأ متخفين ايضاً.

[2] البداية والنّهاية: ٧/٢٤٠.

عبد الله بن سبأ وأتباعه بهودج عائشة، وراحوا يرشقونه بالنّبال رشقة رجل واحد. فجعلت تنادي: الله، الله، يا بَنيَّ. اذكروا يوم الحساب، وجعل السّبئيون لا يقلعون عن رشق هودجها بالنّبال حتّى أصبح مثل القنفذ.. وأحاط جيش علي بالهودج يحميه ببسالة عجيبة، وراحوا يخترقون به الزّحام حتّى وصل إلى الموضع الّذي فيه علي، وجعلت الحرب تأخذ وتعطي، وقتل خلق كثير. وقطعت أيدي سبعين رجلاً وهي آخذة بخطام جمل عائشة .. فقال بعض أفراد من جيش علي: إن الحرب ستظلّ تنوش الهودج مادام هذا الجمل قائماً، فقيل إنّ القعقاع أشار بأن يعقر الجمل حتّى لا تكون عائشة هدفاً للرّماة فتصاب. ولمّا سقط البعير إلى الأرض انهزم من حوله النّاس، وحُمِلَ الهودج وإنّه لكالقنفذ من السّهام، وأخذ بعيداً عن ساحة الهرج والقتال.

وسرعان ما جاء إليها علي رضي الله عنه مسلّماً ومستفسراً عن حالها. وقال لها: كيف أنت يا أمّه ؟ قالت: بخير. فقال: يغفر الله لك .. ثمّ جاء وجوه الصّحابة من كلّ صوب يسلّمون عليها ويطمئنّون على حالها.

* * *

إنّ بوسعي بعد بيان هذه الحقيقة التي لا يرتاب فيها مؤرّخ شريف القصد سليم الطويّة، أن أصف لك مشاهد المأساة وأسرد أخبار جزئيّاتها وما فعلته رياح الفتنة عند تلاحم النّاس وتدافعهم على غير هدى كما يفعل كتاب معروفون اليوم. ولكن ترى ما هو الخير المرجوّ من ذلك، بل ما هي الحقيقة المخبوءة التي يمكن كشفها والوصول إليها عن طريق هذا النبش، باستثناء الحقيقة المؤلمة التي عرفناها والتي أؤكّد مرّة أخرى بأنّه لا يرتاب فيها باحث منصف؟..

ثمّ إنّ ذروة العجب، تتمثّل في أن تجد جلّ الكاتبين والباحثين في هذه المأساة، يسلّطون مجاهرهم، وأسنّة أقلامهم، بالنّقد والتّجريح، على إخوة مسلمين متحابّين كما رأيت، لم يحرّكهم إلاّ الإسلام، ولم يهيجهم إلاّ الغيرة على مبادىء الشرع وأحكامه، وفي مقدّمتهم عائشة وطلحة والزّبير، دون أن يتوجّه هؤلاء الكتّاب بأيّ تنبيه أو إشارة إلى الرّؤوس التي كانت تخطّط للمكيدة بليل، وعلى رأسهم ابن السّوداء عبد الله بن سبأ.

وقد علمت ما قاله لأصحابه وما اقترحه عليهم، عندما بلغه تلاقي سائر فئات الصّحابة على رأي واحد، واتّفاقُهمْ على

الانصياع جميعاً لمشورة عليّ، ثـمّ كيـف نفـذوا اقتراحـه فاندسّـوا في صفوف الإخـوة المتصـافين المتّفقـين، وأثـاروا عواصـف الهـرج فيهم من حيـث لا يشـعرون، ودارت رحـا القتـل بينهـم دون أن يعلـم أحـد منهـم مـن الّـذي حرّكهـا وأدارهـا ومـن أيّ جهـة يمكن إيقافها!..

عجيب جـدّاً أن يوسـع هـؤلاء الكتّاب ضحـايـا هـذه الفتنة، هجومـاً وتجريحـاً ونقـداً واتّهامـاً، ثـم لا يلتفتـوا بكلمـة واحـدة أو يشيروا بإصبع اتّهام واحدة، إلى صنـاع هـذه الفتنـة وحرّاسـها والنّافخين في نيرانها، بدءاً من السّعي إلى قتل عثمان، وانتهاءً بقتل علي كرّم الله وجهه!!..

يكتبون الصّفحات الطّوال عـن المواجهـات الـتي ألجـىء إليهـا الصّحابـة إلجـاءً، ويصطنعـون الغـيرة علـى الشّـمل الّـذي تصـدع والدّماء التي أريقت والإسلام الذي ذهـب ضحيّتَهُ رجالُه ودعاتُـه، دون أن تسوقهم هـذا الغيرة إلى كلمـة إدانـة - ولا أقـول تجريـح أو تجريم - لأولئك الّذين صدّعوا بمكرهم ذلـك الشّـمل وأراقـوا بسيوفهم تلك الدّماء، واندسّوا في غياهب الظّلام لتنحطّ سيوف الأبرياء في رقاب الأبرياء، ولتأكل الحرب بعضها!!..

أليـس من حـقّ أيّ مفـكّر أن يجـزم بأنّ الـتّشـاغـل بالهجـوم

على أولئك الأبرياء، عن أيّ التفاتة إلى هؤلاء الّذين صنعوا الفتنة ثمّ حافظوا عليها، حلقة من الحلقات الأخيرة في سلسلة المؤامرات ذاتها؟.. وإلاّ فَمَن غير صاحب العين الحولاء، يحملق في الظالم، ثم ينحط بالهجوم على المظلوم؟!..[1]

---

[1] انظر فصل: الجنّة لا تستلزم العصمة من كتاب (( هذه مشكلاتهم )) لكاتب هذا البحث.

## عَائِشَةُ أَيَّامَ مُعَاوِيَة:

عادت عائشة إلى المدينة، من تلك السّاحات النّائية الّتي شهدت أغزر دماء بريئة، وهي كتلة من مشاعر الألم والنّدم والأسى!.. ذهبت إلى هناك لترأب صدعاً وتصلح حالاً، ولتقضي على فتنة درجت من مهدها بمقتل عثمان، فتفاقم الصّدع، وساءت الحال، واستشرت الفتنة، واهتاجت كثعبان أفلت من عقال.

فجعل يأكل قلبها النّدم، وتذيبها الحسرة، وتبكي بكاء لا ينقطع ، على الدّماء الّتي أريقت من أجلها، دون أن تنفع في تحقيق غاية أو إخماد فتنة.. قالوا وكانت إذا جلست تقرأ القرآن ومرّت على قوله تعالى: ﴿ وقرن في بيوتكن ﴾ استبدّ بها بكاء أشبه بالعويل، وأخذت تردّدها لتلوم من خلال ذلك التّرديد نفسها على ما قد أقدمت عليه.

انقطعت رضي الله عنها عندئذٍ عن كلّ شيء إلاّ عن عباداتها وتلاواتها وصدقاتها ومبراتها، وأجوبتها العلميّة للنّاس الّذين كانوا يَفِدون إليها للعلم والفتيا.

كان معاوية في تلك الفترة يحاول أن يتقرّب إليها ويحسن من علاقته بها. ولكنّها لم تكن معنية بشيء من ذاك، خصوصاً وقد منيت بمزيد من المعكّرات من جرائه أو على أيدي أصحابه.

من أهمّ تلك المعكرات مقتل أخيها محمَّد بن أبي بكر الّذي كان قد نصبه علي والياً على مصر ... فقد ثار عليه أصحاب معاوية بعد أن أمدّهم معاوية بجيش كثيف، ووقع في الأسر، ثم قتل شرّ قتلة. فجزعت عائشة لمقتله جزعاً شديداً، وضمّت عياله وأولاده إليها ترعاهم وترأف بهم.[1]

ومن هذه المعكرات، أنّ مروان بن الحكم - وكان والياً من قبل معاوية على المدينة - منع أن يدفن الحسن بن علي رضي الله عنه في الحجرة الشّريفة التي كان فيها رسول الله ﷺ، بعد أن أذنت عائشة بذلك. وقد أصرّ الحسين رضي الله عنه على أن يُدفَن أخوه فيها، وكادت تقع من جراء ذلك فتنة، لولا أنّ طائفة من الصّحابة نصحوه وأقنعوه أن يرضى بالأمر الّذي أصرّ عليه مروان. فامتثل عندئذٍ ودفن أخاه قريباً من قبر أمّه فاطمة رضي الله عنها بالبقيع.

غير أنّ معاوية كان يسترضيها كما أسلفنا، وربّما وصلها

---

[1] - تاريخ الطّبري: ٥/١٠٥ وشذرات الذّهب ١/٤٨.

بصلات جسيمة من المال، غير أنّها لم تكن تُبقي شيئاً من ذلك عندها، بل سرعان ما تفرّقه كلّه في المحتاجين كما سبق أن ذكرنا.

وكان يتبع سيرة من قبله في استشارتها والاسترشاد برأيها. ورد أنّه كتب إليها يطلب منها النّصح له في كلمات موجزة، فكتبت إليه تقول:

سلام عليك، أما بعد، فإني سمعت رسول الله يقول: من التمس رضا الله بسخط النّاس، كفاه الله مؤونة النّاس. ومن التمس رضا النّاس بسخط الله، وكّله الله إلى النّاس. والسّلام عليك.

ولقد ثبت أنّ عائشة كانت تنكر الكثير من تصرّفات معاوية وأعماله. ولعلّ من أشدّ ما أنكرت من ذلك عليه قتله لحجر بن عدي وأصحابه، في أمر كان الحقّ فيه مع حجر، وكان قتله ظلماً وافتئاتاً.

فقد روى الطّبري أنّ معاوية لما حجّ مرّ على عائشة، فاستأذن عليها فأذنت له. فلمّا قعد قالت له: أَأَمِنْتَ أَن أُخبِّىء لك من يقتلك ؟.. قال: بيتَ الأمن دخلتُ. قالت: يا معاوية، أما خشيت الله في قتل حجر وأصحابه؟ قال: لست أنا الّذي

قتلتهم، وإنّما قتلهم من شهد عليهم.[1]

ثمّ ذكر رواية أخرى عن ابن سيرين أنّها قالت: يا معاوية أين كان حلمك عن حجر؟ فقال: يا أمّ المؤمنين، لم يحضرني رشيد. قال ابن سيرين: فبلغنا أنّه لـمّا حضرته الوفاة جعل يغرغر ويقول: يومي منك يا حجر يوم طويل.

---

(1) الطبري: ٥/٢٥٩.

# أيامها الأخيرة ووفاتها

كانت عائشة، كلّما امتدّ بها الزّمن، تزداد تبتّلاً وعبادةً وزهداً وعزلةً عن النّاس، اللهمّ إلاّ ما كانت تلقى النّاس من أجله من علم وفتيا وسؤال عن حكم في الحلال والحرام.

وكانت تكثر من النّوافل في اللّيل والنّهار. وكانت تحرص على أن تؤدّي الصّلوات المكتوبة بجماعة. فإمّا تصلّي مقتدية بإمام المسجد وهي في بيتها، إذ كانت حجرتها متّصلة بالمسجد، وإمّا اجتمع عندها جمع من النّساء فأمّتهن وقامت بينهن.

ولمّا مرضت المرض الّذي توفّيت على أعقابه، وكان ذلك في شهر رمضان من السّنة الثّامنة والخمسين من الهجرة، أوصت أن لا يُتَّبَعَ سريرُها بنار، وأن لا يجعلوا تحتها قطيفة حمراء. ولمّا اشتدّ المرض عليها استأذن عليها عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما فيما رواه ابن كثير بسنده عن ذكوان حاجب عائشة رضي الله عنها، قال يحدّث عبد الله بن أبي مليكة، أنّه جاء عبد الله بن عبّاس يستأذن على عائشة، فجئت، وعند رأسها عبد الله بن أخيها عبد الرّحمن، فقلت: هذا

ابن عبّاس يستأذن، وكانت في الرّمق الأخير، فقالت: دعني من ابن عبّاس. فقال: يا أمّاه، إنّ ابن عبّاس من صالح بنيك، يسلّم عليك، ويودّعك. فقالت: إأذن له إن شئت قال: فأدخلته. فلمّا جلس قال: أبشري، فقالت: بماذا ؟ فقال: ما بينك وبين أن تَلقي محمَّداً والأحبّة إلاّ أن تخرج الرّوح من الجسد، وكنتِ أحبّ نساء رسول الله ﷺ إليه، ولم يكن رسول الله ﷺ يحبّ إلاّ طيباً، وسقطت قلادتك ليلة الأبواء، فأصبح رسول الله ﷺ، وأصبح النّاس وليس معهم ماء، فأنزل الله تعالى آية التيمّم، فكان ذلك في سببك، وما أنزل الله من الرّخصة لهذه الأمّة. وأنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات، جاء بها الرّوح الأمين، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله إلاّ يتلى فيه آناء اللّيل وآناء النّهار.

فقالت: دعني منك يا ابن عبّاس. والّذي نفسي بيده، لوددت أنّي كنت نسياً منسيّاً.[١]

ورجح ابن كثير أنّها توفّيت ليلة الثّلاثاء في السّابع عشر من رمضان، وأنّها أوصت أن تدفن بالبقيع ليلاً. وصلّى عليها أبو هريرة بعد صلاة الوتر. ونزل في قبرها خمسة، منهم عبد الله

---

[١] البداية والنّهاية : ٨/٩٤.

وعروة ابنا الزّبير بن العوّام، من أختها أسماء بنت أبي بكر.

وكان عمرها عند الوفاة سبعاً وستّين سنة، إذ أنّ رسول الله لـمّا توفّي كان عمرها ثمانية عشر عاماً. وكان عمرها عام الهجرة تسع سنوات. رحمها الله ورضي عنها وأرضاها.

## مِنْ أَشْهَرِ تَلَامِذَتِهَا:

نبغ عدد كبير من التّلامذة على يد السيّدة عائشة، وكانوا من أشهر التّابعين وأعلمهم. فكانوا يدخلون الحجرة الشّريفة، ويجلسون إليها من وراء حجاب، يسمعون منها ويتلقون عليها.

وقد كان بعض هؤلاء التّلامذة من أقارب السيّدة ومحارمها. كانت تعنى بهم وتهتمّ بتعليمهم. وممّا لا ريب فيه أنّ هؤلاء كانوا أقرب إليها من غيرهم، لمكان قرابتهم منها. ولسهولة دخولهم عليها وجلوسهم إليها. وهم: عبد الله وعروة ابنا الزّبير، من أختها أسماء رضي الله عنها وعنهم جميعاً. والقاسم بن محمَّد، وهو ابن أخي السيّدة، وعبد الله ابن أبي عتيق حفيد أخي السيّدة، وعباد وخبيب ولدا عبد الله بن الزّبير،وعباد بن حمزة بن عبد الله بن الزّبير. وأبو سلمة بن عبد الرّحمن ابن أختها من الرّضاعة.[1]

ولعلّ عروة كان أكثرهم أخذاً ورواية عنها. وهو أحد أبرز علماء المدينة ولد في آخر خلافة عمر سنة ٢٣ وكان عمره

---

[1] السّيدة عائشة لعبد الحميد طهماز: ٢٠٣.

يوم الجمل ثلاث عشرة سنة. قال قبيصة بن ذئب: كان عروة يغلبنا بدخوله على عائشة، وكان عروة أعلم النّاس بحديث عائشة، قالوا: وكان ثقة كثير الحديث فقيهاً عالماً ثبتاً مأموناً.

# وبعد ....

وبعد، يا قارئي الكريم:

تلك هي خلاصة مكثفة - وأحسبها جامعة - لسيرة أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، إعتمدت فيها على أوثق المراجع، واستقيتها من أصدق الأفواه، بعيداً عن مؤثرات العصبيّة ورعونات الأهواء.

ولقد رأيتَ، فيما ذكرناه، من سمو أخلاقها، وصفاء نشأتها، وطهارة أصلها ومحتدها، واتّساع علمها بل علومها، وصدق استقامتها، وكثرة عبادتها، وشدّة زهدها وورعها وعموم تقديرها وتبجيلها لسائر أصحاب رسول الله، لا سيما آل بيته المطهرين، وفي مقدمتهم وعلى رأسهم عليّ رضوان الله عنه - رأيت فيما ذكرناه من ذلك، ما يكشف عن سرّ محبّة رسول الله لها، واحتلالها من قلبه مكانة لم يتبوّأها غيرها من أمّهات المؤمنين.

ولئن لم يكن لها من تلك الفضائل والمزايا إلاّ شدّة محبّة رسول الله لها، ودوام هذا الحبّ في تزايد إلى وفاته عليه الصّلاة والسّلام، حتّى إنّه قُبِضَ وهو بين سَحرها ونحرها، لكفاها ذلك

مزية يشهد لها بها عباد الله الصّالحون وملائكة الله المقرّبون. فكيف وقد جمع الله لها تلك المزايا كلّها متوّجة بعظيم حبّ رسول الله لها.

ولقد أبت إلاّ أن تَتَوجَّه وتُوَجِّهَ المسلمين إلى الاقتصاص من قتلة عثمان، مندفعة إلى ذلك بدافع لم يخالفها فيه، أي في ذلك الدّافع، أحد. وفي مقدّمتهم عليّ رضي الله عنه. ولكنّها لم تكن تدري، ولم يكن غيرها من كرام الصّحابة أيضاً يدري أنّ رؤوس الفتنة السّبئية اتّخذت في الظّلام من تلك المخاضة شَرَكاً ومصيدة لها ..ولولا ذلك لكانت عاقبة تلك التحرّكات محقّقة لخير كبير وتضافر عظيم، ولَصُفِّيَتْ العلاقات والتعاونات الإسلامية من الشّوائب، كما قد رأينا فيما قد ذكرنا، عندما تمّ الصّلح وتواثقت النيّات وتضافرت القوى.

فلئن كانت تلك المخاضة، كما رأتها وظهر لها، جنّة، فقد دخلتها بحمد الله وإكرامه، ولئن كانت ناراً كما تبدت في عاقبتها، فقد خرجت منها بحماية الله ولطفه.

فهل ترتاب يا أخي القارىء، في أنّ كلّ من جاء فكتب عنها، متوكّئاً على أخيلة يحصل عليها من السواقي الممتدّة والسّارية من مستنقع النّفاق الحاقد الّذي كان يتفجّر من نفس

ابن سلول، أو معتمداً على الخطوط المظلمة السّوداء الممتدّة إلى هذا العصر من فؤاد ابن سبأ، فهو جانح عن الحقّ إلى الباطل اللذين لا لبس بينهما قط، وحائد عن الينابيع الثرة الصّافية إلى عكر العصبيّات والأهواء ؟

وإنّي لأشهد أنّ كلّ من أغمض العين عن كلّ هذا الذي أثبتته التّراجم والكتابات الصّحيحة الموثّقة، ثمّ اتّخذ من قلبه وعاء لحفيظة أو كراهية يدخرها لعائشة في ذلك الوعاء، فهو ذو قلب مكدر ومتحفظ تجاه زوجها ومحبها، ومن أصرّ على أن يُقْبَض في أحضانها، محمَّد رسول الله ﷺ، قبل أن تستشعر نفسه معنى الحفيظة تجاه عائشة.

أسأل الله تعالى أن يصفي أفئدتنا من الشّوائب، وأن يجعل من حبّنا لرسول الله وآل بيته وأزواجه وسائر أصحابه البررة الكرام، رأس مال ندّخره لنجاتنا يوم يقوم النّاس لربّ العالمين، إن قلّت الأعمال الصّالحة في صفحاتنا وكثر عليها سواد التّقصير والعصيان. وأعظم بذلك منجيّاً وشفيعاً. والحمد لله رب العالمين.

**محَّمد سعيد رمضان البوطي**

# الفهرس

# باقتنا الثقافية المنوعة

## مساهمة في بناء مجتمع سليم قائم على المحبة والهدى

## للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

- تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث.
- قضايا فقهية معاصرة.
- اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية.
- من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل.
- من الفكر والقلب فصول من النقد في العلوم والاجتماع والآداب.
- مسألة تحديد النسل وقاية وعلاجاً.
- وهذه مشكلاتنا....
- سلسلة أبحاث في القمة. ١ ــ ١٠
- التصوير بين حاجة العصر وضوابط الشريعة لتوفيق سعيد رمضان البوطي.
- يا بني أقم الصلاة لتوفيق سعيد رمضان البوطي.